د. إبراهيم محمد الجمل

الغيبة والنميمة

وآفات اللسان



اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية



الغيبة والنميمة

دار البشير - القاهرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادى الزراعى ص . ب ١٦٩ المعادى . ت : ٣١٨٧٣٦٨

إبراهيم محمد الجمل

الغيبة والنميمة

وآفات اللسان

دار البشير
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾.

(الآية ٤١ من سورة إبراهيم)

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

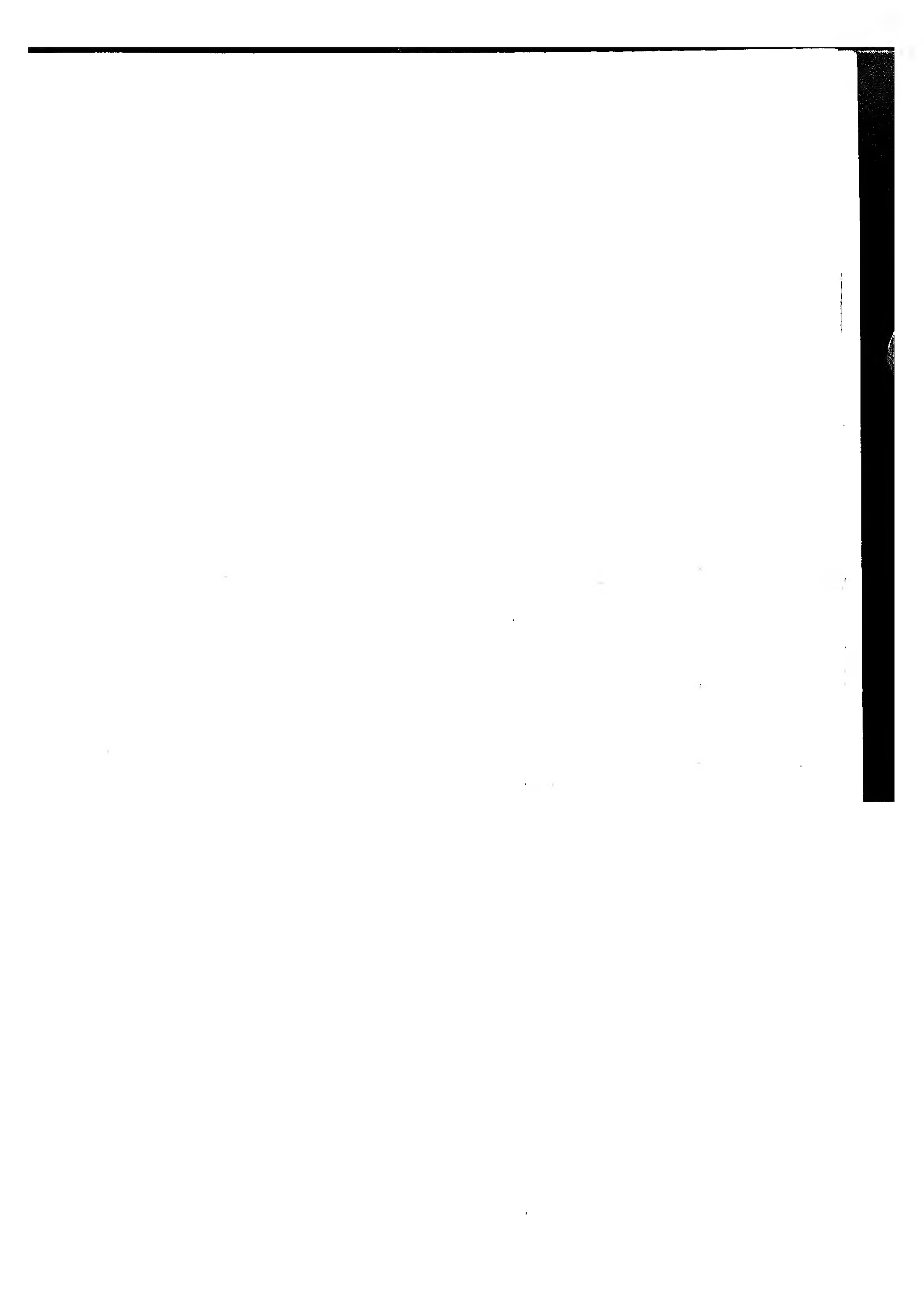
(الآية ٢٨ من سورة نوح)

إهداء

إلى سيدى رسول الله ﷺ خاتم المرسلين .. وسيد العالمين .. ومعلم المتعلمين .. والهادى من الظلمات إلى النور .. إلى صاحب الخلق الرفيع بشهادة الحق سبحانه وتعالى حيث قال : ﴿ وإنَّكَ لعلَى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾ ..

أهدى هذا الكتاب

المؤلف



تقديم

الحمد لله رب العالمين .. الذى أحسن خلق الإنسان وعدله ، وألهمه نور الإيمان فزينه به وجمله وعلمه البيان فقدمه به وفضله ، وأفاض على خزائن العلوم فأكمله ثم أرسل ستراً من رحمته وأسبله ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ويكتشف عنه ستره الذى أرسله ، وأطلق بالحق مقوله ، وأفصح بالشكر أولاه وخوله من علم حصله ، ونطق سهله ..

وأصلى وأسلم على سيدنا وحبيبنا وخليلنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ..

فإن المتأمل فى نظم الإسلام يجد أنه عنى عناية تامة بالفرد وعلاقته بين الناس ، وأحاط هذه العناية بمنهج علمى عليه أن يسلكه فى معاملاته مع الآخرين .. حتى لا يقف بعضهم أمام بعض فى مواطن الحرج ومواضع العطب ..

ففى منهجه تسلسل منطقى وحكمة تربوية تهدف إلى ترسيخ أصول الإحسان فى القلوب ، حتى يفيض على كل الجوارح وهى تمارس الشعائر الإسلامية ، ويصبح ملكة من ملكات النفس البشرية ، بحيث لا تحتاج فى تنفيذه إلى عناء ولا مكابدة ..

فمن صفات المسلم بذل الجاه للإخوان والمسلمين كافة ، والمعرفة بعيوب

النفس وآفاتها وشهواتها والوصول إلى قضاء حوائج المسلمين ، وبذل الجاه والمعاونة فى إصلاح ذات البين ، والتخلق العام بأخلاق المسلمين ، وكونه حيث أمر الله ، وبعده عما نهى الله .

ولكن يلعب الشيطان دوراً فى تزيين الدنيا ، وتلعب الدنيا والنفس والهوى أدوارها فيفعل أفعالًا لا يرضى عنها أحياناً ، أو بدافع من نفسه للوصول إلى عرض مادى ، أو غرض دنيوى .

ويناقض نفسه أحياناً ليثبت فيها معانى الحضارة الحديثة ومتطلباتها من جمع المال وطرق جمعه والمسالك التى يجب سلوكها فى الوصول إليه .. ويحل بينه وبين نفسه ما حرم الله استناداً إلى الوهم ، وإغراقاً فى عالم الخيال .

فإن الناس فى عصرنا فتحوا أعينهم على مفاهيم غريبة وأحاديث يغيب فيها الفهم ، ويضيع عندها الوقت .. فقد سمعوا إلى المادية التاريخية ، فقالت لهم أن الإنسان عملة اقتصادية .. فى سوق الصناعة والتجارة ، تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد ..

واستمعوا إلى كثير من المذاهب وكثير من الآراء ، وكثير ممن يدَّعون الإصلاح الاجتماعى ، وكثير ممن يدَّعون الفكر الإنسانى ..

وكل هؤلاء أضافوا إلى حياتنا أوهاماً غرق الناس فيها ، وتاهوا وسط ظلماتها فعادوا ماديين لا يعرفون إلا للمادة ، ولا يصادقون إلا من أجلها ..

فإذا ما عجز أحدهم يوماً ، أو أراد كسباً لجال لجأ إلى الغيبة والتشهير والنميمة والإفساد ..

فأصبح هذا الداء العضال من سمات عصرنا .. حتى ظنه بعضهم من مقوماته ، ومن عوامل ازدهار الأفراد ، ومن المداخل إلى الثراء إذ إنه حنكة وذكاء ..

وهذا هو الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **ولا يغْتَبْ بَعْضُكُم بعْضاً أيُحبُّ أحدُكُم أنْ يأكُلَ لَحْم أخِيه مَيْتاً فكَرِهتُموه** ﴾ (الحجرات : ١٢) .

وعن رسول الله ﷺ أنه سئل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال : ذكرك

أخاك بما يكره . قيل : إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال ﷺ : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » .

أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن

وقال الحق سبحانه وتعالى عن النمام : ﴿ **هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ** ﴾ (القلم : ١١ - ١٣) .

وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة نمام » متفق عليه .

ولذا وضعت هذا الكتاب .. فجعلنا الباب الأول منه حول واقع الإنسان ووصوله إلى الكراهية ، إذ إنها مفتاح آفات اللسان . والثانى فى بيان آفات اللسان عامة . والثالث فى دوافع الغيبة . والرابع فى تحريم الغيبة . والخامس فى علاج الغيبة . والسادس فى دوافع النميمة وعلاجها .

أسأل الله رب العالمين أن ينفع به ، وأن يجعله فى صحائف أعمالى يوم القيامة « يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

إبراهيم محمد الجمل

الباب الأول

واقع الإنسان

- الإنسان المتطرف
- الإنسان فى علوم النفس والأخلاق
- الإنسان فى القرآن

واقع الإنسان

دراسة واقع الإنسان .. ومكانته فى التشريع وعلم الأخلاق .. ومكانته من كتاب الله .. يلقى الضوء على مفاهيم بها نستطيع أن نتفهم طبائع البشر وسلوكهم .. ومنها الغيبة والنميمة ..

فلا شك أنهم يتبارزون من أجل هدف لم يستطيعوا الوصول إليه .. ولا شك أنهم يتحاربون من أجل مادة ستزول أو مركز سيفنى .. ولا شك أن هذه الغوغاء ستنتهى يوماً بعد أن دبت سنين .. لم يفهموا مراد الحق سبحانه وتعالى من إقامة الحياة على هذه المعمورة .. تناجشوا وتجازروا وتباعدوا .. ولو أحكموا العقل لتبادلوا الخبرات والخيرات فعاشوا فى اللذات الروحية والمادية أكثر وأحسن .. ولو عقلوا لما شبت الحروب بينهم ليل نهار .. ولكانوا أسرع إلى المجد وصولاً ، وأقرب إلى الهناءة سرعة ، وأرق فى العلم تقدماً .. كلا .. لم يعوا واقع الدنيا وأحداثها ولم يتعلموا من أسلافهم البشريين ولم يفقهوا مكانة الإنسان على الأرض وعمق ذاته ..

إنه كبير كبير بل وعظيم عظيم إذا أعمل العقل ولم يناقض نفسه فى منهجه العلمى والبحثى .. بل تراه حتى فى مجال البحث والاكتشاف يناقض نفسه مرة لحساب هدف ذاتى أو من أجل مصلحة خاصة ..

فمما لا شك فيه أن تباين أخلاق الناس وصفاتهم وقدراتهم على العطاء للبشرية تجعلهم يعملون فى حقل واحد لا يضيق أحد على الآخر إذا عقلوا ذلك ..

ولكنهم لم يعقلوا فانتشر الوباء بينهم ، وفشت الفاحشة وسطهم ، وترى فيهم بذىء اللسان ، ومنحرف المزاج ، ودنىء الطبع ، ومن تحكمه شهوته ، ومن يقيده هواه ..

نظرة معى أخى القارىء إلى هذا الذى يسب ويلعن ويقول ويتقول فيضع نفسه بين الناس فى مواضع الحرج هو فى غنى عنها لو علم مكانته على الأرض وطبيعته .

فلقد تباحثوا الإنسان ووضعه وقالوا فيه الكثير ، ودارت المناقشات وكثرت الأبحاث ، وتشعبت الآراء من العقلاء والمفكرين والنبلاء والمصلحين ..

الإنسان فى علوم النفس والأخلاق

فمنهم من يراه حيواناً مدنى الطبع .. أو حيواناً ناطقاً .. أو حيواناً اجتماعياً تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع ..

ولكن ليس بين الأحياء على وجه الأرض من يوصف بالنطق وبالفطرة الاجتماعية غير الإنسان ..

واسم الإنسان وحده باللغةالعربية يغنى عن مذهب ، لأنه اسم يعتبر هذا الكائن الوحيد أساساً للألفة الاجتماعية حين تنسب لغيره ، وقد لعب الشعراء بما فى الكلمة من الجناس اللفظى فقال أبو تمام :

لا تنسين تلك العهود فإنما سميت إنساناً لأنك ناسى

وقال غيره :

وما سمى الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

ولكن المقابلة بين الكلمات قديماً وحديثاً تبين لنا عن أصل هذا المعنى ، فالمكان الأنيس هو الذى يسكنه الناس ، والحيوان الأنيس هو الذى يألف الإنسان فى مسكنه ..

[وغير ذلك من الأمكنة أو الخلائق فهو المكان الموحش وسكانه هم الوحوش] .

ويسرى هذا المعنى إلى اللهجات البدوية الحديثة ، فيطلق أهل البادية فى الصحراء الغربية اسم « العشرية » على الشاطىء المأهول ، ويطلقون اسم الخلاء على ما وراء ذلك من رمال الصحراء التى لا تزرع ولا ترعى ، ولا يسكنها الانسان ولا الحيوان فى عشرة طويلة .

ان الحضارة الأوربية – منذ عهد الفلسفة الأغريقية – لم تهتد إلى مذهب محيط .. « بالانسان الأخلاق » أوسع من هذا المذهب ولا أقرب منه إلى لباب المذاهب الأخرى التى ظهرت بعده فى هذه الحضارة .

أما الحضارة العربية فصفة الانسان فى لغتها وتفكيرها ألصق به من أن تكون مذهباً تقابله مذاهب أخرى فى معناه .. إن صفة الانسان فى هذه الحضارة العربية هى اسمه الذى لا ينفك عنه ، وما من عجب أن « تنبت » هذه الصفة من البادية حيث يتضح بين خصائص الانس وخصائص الوحشة غاية الاتضاح ..

وتكاد كل حضارة كبيرة أن تمتاز بطابعها فى تعريف الانسان الأخلاق ، أو الانسان صاحب الضمير الذى يناط به الحساب ويوصف بالحميد أو بالذميم من الأعمال والعادات .

فالانسان فى الحضارة الانسانية هو ظاهر وباطن كالوجود الذى خلق فيه وظاهرة تحكمه قوانين السلوك العملى ويقاس بالمقاييس الاجتماعية وبكل ما ترتبط به مصالح المجموع Pluralistin وتسمى هذه القوانين بآداب الميامزا Miumsa ويظن أنها وفدت إلى الهند مع الشعوب الفاتحة التى جاءتها « بأدب العمل والحركة » فتميزت فلسفتها بهذا الطابع بين فلسفات الانزواء والهرب من الحياة ..

وباطن الانسان يستقبل باطن الوجود ، ويسمون فلسفته بالسانيا Sannyasa أى فلسفة التجرد من المادة وطلب الخلاص من لعنة الولادة والموت بانكار الجسد وقمع الشهوات والعزوف عن صغائر الحاجات وكبائرها

على السواء ، ويوشك أن يكون كل مذهب فصاص على هذا النحو مستمداً فى النهاية من أصول هندية ، وإن كانت نهاية المذهب إلى « اليوجا » التى تجعل الجسد والطبيعة كلها تبعاً للرياضة الروحية[1] .

وتتوالى الآراء والنظريات وبعض الحقائق عن الإنسان وطبعه .. ولكننا « نجتذى بأحدث الأقوال التى انتهى إليها غلاة الماديين بياناً لمزية العقل فى الحيوان الناطق ، فلا نحسب أنهم قد استطاعوا أن يدعوا له مزية أقل من مزية الروح فى ارتباطها بالحياة أو بالمؤثرات الحيوية على وظائف البنية الإنسانية على الخصوص ، وربما كان تعويلهم على دلالة الجهاز العصبى فى الحيوان عامة وفى الإنسان خاصة أشد من تعويل العلماء المتدينين على دلالة الارتقاء إلى الملكات الروحية ، بمقدار الارتقاء فى التراكيب الجسدية .

فالأستاذ « بافلوت » المشهور بتجاربه الجسدية النفسية يقول : « كلما أحكم كيان الجهاز العصبى فى بنية الحيوان كان أقرب إلى التذكر وكان أقدر على المزيد من التأثير بوظائفه العليا على التوزيع والتنظيم فى أعمال البنية كلها » .

الإنسان فى القرآن

وقد أثبت زملاء « بافلوت » وتلاميذه أن بقاء الحياة بعد توقف نبض القلب مرهون بسلامة المخ الذى يحتفظ بسلامته بعد توقف النبض بنحو ست دقائق ، وأن الوعى الإنسانى له أثره حتى فى تأثير السموم القاتلة ..

جاء فى كتاب « مسالك العلم » الذى طبع فى موسكو سنة ١٩٥٦م :

« من العقاقير السامة القوية التسميم مادة البوتاسيوم سديد .. وهى سريعة الفعل تقتل على الأثر بمقاديرها الكبيرة ، وتسمم جميع الخلايا لأن الخلايا تحت تأثيرها لا تتشرب الأوكسجين ولا تتنفس ، وإذا حقنت به عروق قطة ماتت

---

(١) الإنسان فى القرآن – للعقاد – ط دار الهلال (١٥٠) .

على الأثر كأنها أصيبت بصاعقة .. وقد حقنت به اثنتا عشرة قطة فماتت ست منها خلال بضع ثوان ، ولكن الست الباقية لم تتأثر كأنما حقنت بماء ، وهى الست التى خدرت بالأثير المعقم أثناء الحقن »[٢] .

إلا أن سلطان الوعى على الإنسان قد بلغ درجته العليا . ويقول « بافلوت » فيما رواه عنه الكتاب نفسه « عندما بلغ تطور العالم الحيوانى منزلة الإنسان نشأت إضافة هامة جداً فى جهاز النظم العصبية العليا .. ففى الحيوان تتمثل وقائع العالم على الأعم الأغلب بما تمونه من المنبهات التى تصل إلى المخ فتبعث التنبيه إلى حواس النظر والسمع وسائر الحواس الحيوانية ، وهذه أيضاً هى المنبهات التى تصل إلينا عن طريق المؤثرات والأحاسيس والخواطر من العالم الطبيعى أو العالم الاجتماعى الذى يحيط بنا ، ما عدا المؤثرات التى ينفرد بها الإنسان وتؤدى له وظيفة التنبه لذلك التنبيه » .

ولا يدعى « الحيوان الناطق » ولا للحيوان ذى الروح مزية أكبر من هذه المزية ، فهى تكاد أن تقرر للروح سلطاناً على الجسد كسلطان « اليوجا » المعروف عند نساك الهند ، وتكاد أن تجعل الأخلاق جميعاً مسائل عقلية تملك التأثير الأكبر – إن لم نقل التأثير المطلق فى كيان الإنسان وفيما هو أهل له من أهمية العقل والوجدان[٣] .

ولكنك إذا أمعنت النظر فى الإسلام وجدته قد وضع الإنسان فى مكانته اللائقة به فكرمه وأحسن تكريمه ، وقومه وأحسن تقويمه .. فخاب هؤلاء الماديون وخابت دعواهم وآراؤهم ..

ففيه – أى القرآن – ذكر الإنسان بغاية الحمد وغاية الذم فى الآيات المتعددة ، وفى الآية الواحدة . فلا يعنى ذلك أن يحمد ويذم فى آن واحد ، وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما فهو أهل للخير والشر ، لأنه أهل للتكليف .

---

(٢) Pathes & Science ley L. Friedland

(٣) الإنسان – للعقاد (١٥٦) .

والإنسان مسئول عن عمله – فرداً وجماعة – لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة .

﴿ كُلُّ امرىءٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[٤] .

أما مناط المسئولية فى القرآن ، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع .

فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة .. تبليغ ، وعلم ، وعمل .. فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة فى مسائل الغيب ومسائل الإيمان .

﴿ وإنْ مِنْ أمَّةٍ إلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[٥] .

﴿ ومَا كُنَّا مُعذِّبِينَ حتَّى نَبْعثَ رسُولاً ﴾[٦] .

أما العلم فإن أول آية فى الكتاب تلقاها صاحب الدعوة الإسلامية كانت أمراً بالقراءة وتنويها بعلم الله وعلم الإنسان ﴿ اقْرَأْ ورَبُّكَ الأكْرَمُ * الّذى علّمَ بالْقلَمِ * علّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٧] .

وأول فاتحة فى خلق الإنسان ، كانت فاتحة العلم الذى تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات .

﴿ وعلّمَ آدمَ الأسْماءَ كُلَّها ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ علَى الملائِكَةِ فقَالَ أنْبئُونى بأسْماءِ هَؤُلاءِ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ * قالوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لنا إلّا ما عَلّمْتَنا إنَّكَ أنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾[٨] .

وترى الإنسان من خلال خطاب الله له وتوجيهه لأمره ، ونهيه لاجتناب نواهيه ، وتكليفه وخطابه لروحه وعقله .. ذلك أن :

---

(٤) سورة الطور : ٢١ .
(٥) سورة فاطر : ٢٤ .
(٦) سورة الإسراء : ١٥ .
(٧) سورة العلق : ٣ – ٥ .
(٨) سورة البقرة : ٣١ ، ٣٢ .

« عقيدة الروح إحدى العقائد الغيبية فى القرآن .. والعقائد الغيبية أساس عميق من أسس التدين ، تقوم عليه كل ديانة يطمئن إليها ضمير الإنسان ، ولكن الفضيلة الأولى فى عقائد القرآن الغيبية أنها لا تعطل عقول المؤمنين بها ولا تبطل التكليف بخطاب العقل المسئول ، وهو يؤدى حق التمييز ، وحق الإيمان والإسلام .. إسلام الأمر كله إلى الخالق المعبود .

وعقيدة الروح إحدى العقائد « الغيبية » التى نلمس فيها هذه الفضيلة ، فإنها من حقائق الحس وإن وجب على العقل الإنسانى أن يؤمن بعلمه القليل فيها ، وأن يسلم تسليم الإيمان بأنها من علم الله .

ذلك بأن الإيمان بالروح لم يفرض على العقل البشرى فى القرآن الكريم نقيضة من النقائض التى تشطره بين ضدين متدابرين ، ولم يفصم النفس البشرية بفاصم من الحيرة بين الخلقتين ، خلقة الإنسان روحاً مجهول القوام ، وجسداً معروف المطالب والغايات ، محسوس اللذات والآلام .

فالروح والجسد فى القرآن الكريم ملاك الذات الإنسانية تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما فى سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقاً ليوفى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقاً ليوفى حقوق الجسد ، ولا يحمد منه الإسراف فى مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك .. وعلى الله قصد السبيل .

والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح كما ينهى عن إباحة المحرم :

﴿ يَا أَيُّها الذينَ آمنوا لا تُحرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكُمْ ولا تعْتدُوا إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المُعْتدينَ * وكُلُوا مما رَزَقَكُم اللهُ حَلَالاً طَيِّباً واتَّقُوا اللهَ الذى أَنْتُم به مُؤْمِنُونَ ﴾[٩] .

والقرآن الكريم يعلم المؤمن به أن يكسب الطيبات من صنع يده ، وان ينفق منها غير مسرف فى انتعاشه ، وأن ينعم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة مشكورة لا يحل له أن يجتنبها »[١٠] .

---

(٩) سورة المائدة : ٨٧ ، ٨٨ .

(١٠) الإنسان فى القرآن – للعقاد (٢٦) .

وإذا أمعنت النظر فى كتاب الله وجدت أنه فصل فى قضية الروح والجسد فأكد أنه ليس هناك فصام بين روح وجسد ، أو انشقاق بين عقل ومادة ، أو انقطاع بين سماء وأرض ، أو شتات فى العقيدة يوزع « الذات الإنسانية » بين ظاهر وباطن أو بين غيب وشهادة ، بل هى العقيدة على هداية واحدة تحسن بالروح كما تحسن بالجسد ، فى غير إسراف ولا جور عن السبيل .

﴿ ومِنْها جَائِرٌ ولَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أجْمَعِينَ ﴾[11] .

إن القرآن الكريم بهذا الإلهام الصادق ، ينقذ العقل من نقائض التفكير ولا ينحيه من نقائض التكليف وحسب أو من نقائض الحيرة بين العالمين فى حقائق الدين ، ولا مزيد .

فمن ضلال التفكير قديماً ، أنه ساق كبار العقول إلى ذلك الفاصل المعتسف بين عالم النور والفلك الأعلى ، وعالم التراب والأرض السفلى .. كل ما فوق القمر فهو صفاء وطهارة ، وكل ما دون القمر فهو كدر ودنس ، وكل ما هنالك فهو جوهر خالص ، وكل ما دونه فهو عرض مشوب أو أغراض لا يصفو لها وجود ولو أشرق عليها عالم النور ..

وعلى مثل هذا « التفاضل » المسلّم بين النور والتراب ، وبين الجوهر والعرض ، قد دار كل ما دار قديماً وحديثاً – من الدين والعلم – من عزل أصيل بين الصفاء والكدرة ، وبين العقل والمادة ، وبين الروح والجسد وبين النقيضين من النور والظلام .

إن هذا الاعتساف فى التفريق بين هذين الوجودين المتقابلين قد عطل العقل زمناً طويلاً عن فهم حقائق الحس ، كما عطله ولا يزال يعطله عن فهم حقائق التكليف وحقائق الأديان ..

إن العقل ليعلم اليوم أن ذرات التراب وذرات الضياء ، من معدن واحد وأن الحجر اليابس يتفتت فإذا هو شعاع ، وإن الشعاع المطلق ينعقد ويتقابل فإذا هو حجر ، وأن الفيصل بين ضياء الفلك وضياء العقل لاشك فيه ، ولكن

---

(١١) سورة النحل : ٩ .

لاشك كذلك فى خفاء هذا الأمر على العلم كخفائه على الإيمان .

فماذا يقول العالمون بالذرة من « المؤمنين » بالمادة دون الروح ؟ .. ماذا يقول عن عقل « الدماغ » كيف يرى ما لا تراه العين بشعاع الضياء ؟

سيقول علماً ما قال به قارىء الكتاب إيماناً حين قيل له عن الروح فسمع وصدق وقلبه مطمئن بالإيمان .

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[١٢] .

وبعد .. فهذا جانب من تصوير القرآن للإنسان .. قوياً حسناً ذا أهبة مكلفاً .. الخ .

فعليه أن يدرك عمق ذاته وعقله على هذه المعمورة .. والرسالة التى جاء من أجلها وعليه أيضاً أن ينظر إلى طبيعته من حيث ميل نفسه وهواه .. وطلبات ذاته وتطلعاتها إلى الحرام ..

الهوى والشـــهوات

فإن الله ركب فيه الشهوات والهوى وجعل للشياطين فيهم وساوس يجرون فيهم مجرى الدم ، ويغوصون غوص النون فى البحر ، وجعل القلب ملكاً على الجوارح .. فالشهوة تحرك البدن الساكن ، وتزعج القلب ، والشيطان يمنيه ويزين له ويعده ، والهوى يميل به ويقوده ، فالمؤمن قلبه مطمئن بالإيمان ، والتوحيد ظاهر على لسانه فإذا جاء وقت فعل الأركان عمل فيه الشهوات ، وزين له العدو ، ومال به الهوى ، حتى يفعل الفعل الذى يخيل إليك فى الظاهر أنه لم يؤمن بعهد ، فهو موحد بالقلب واللسان ، ولكن لغلبة الشهوة وقوتها ، فبظلمة هذا الهوى ، ووسوسة هذا العدو والتزين ، غلب على القلب لا على ما فى القلب ، فما فى القلب من المعرفة فالقلب به مطمئن ، ولكن صار مأسوراً مقهوراً وهو أبداً لمن غلب عليه وقهره .

(١٢) سورة الإسراء : ٨٥ .

نور الله للإنسان

فمن نوّر الله قلبه بالإيمان قويت معرفته ، واستنارت بنور اليقين فاستقام به قلبه ، واطمأنت به نفسه ، وسكنت ووثقت وأيقنت ، وائتمنته على نفسها ، فرضيت لها به وكيلا ، وتركت التدبير عليه ، فإن وسوس له عدو بالرزق والمعايش ، لم يضطرب قلبه ولم يتحير ، لأنه قد عرف ربه معرفة أنه قريب ، وأنه لا يغفل ولا ينسى ، وأنه رؤوف رحيم ، وأنه رب غفور رحيم ، وأنه عدل لا يجور ، وأنه عزيز لا تمتنع منه الأشياء ، وأنه يجير ولا يجار عليه ، فكما خلقه محتاجاً مضطراً فإنه سيوصله إليه من حيث يريد الرب تبارك وتعالى ، لا من حيث يريد العبد ، على الهيمنة التى يريد الرب ، لا على الهيمنة التى يريد العبد ، وبمقدار ما يريد الرب ، لا بمقدار ما يريد العبد ، وفى الوقت الذى يريد الرب ، لا فى الوقت الذى يريد العبد ، فعامة أهل التوحيد قد أيقنوا بهذا إيماناً به ، وقبولاً له ، ولم يستقر ذلك الإيمان فى قلوبهم ، حتى إذا كان وقتُ الحاجة اضطربت قلوبهم وتحيرت ، واشتغلت عن خالق الأشياء ، ومالك الملوك ، وأهل اليقين الذين استنار الإيمان فى قلوبهم ، سكنت القلوب ، واطمأنت النفوس إلى ضمان ربها ، وقربه منهم ، وقدرته عليهم(١٣) .

فإذا لم يحدث ذلك اضطربت النفس وتحيرت فنظرت إلى الناس بعين خبيثة كانت طماعة نهاشة .. لم ترض بما قسم الله لها ..

المادية الحديثة

أضف إلى ذلك انبلاج هذه المادية الحديثة الغربية وما ألقته على عاتق الناس من التزامات فتراهم يحاولون جهدهم الوصول إلى المجد .. فلا يتحقق ذلك

---

(١٣) أسرار مجاهدة النفس للترمذى – تحقيق المؤلف – ط مكتبة السلام العالمية .

أحياناً فيأخذون فى كراهيتهم بعضاً بعضاً .. فالبوصول إلى الكراهية يغتاب الناس بعضهم بعضاً .. وبالوصول إلى الكراهية تتفشى النميمة بينهم .. وبالوصول إلى الكراهية يدب السوس فى سيقانهم .. وبالوصول إلى الكراهية تنشب بينهم الحروب ..

إن الكراهية أساس الحقد والحسد والغيبة والنميمة .. ولو طهر الإنسان قلبه من كراهية للناس فعفا عمن ظلمه .. وأعطى من حرمه ، ووصل من قطعه ، ودعا للناس أجمعين ، وعاش مطمئن القلب هادىء الضمير بعيداً عن كل رذيلة ، لما اغتاب ولا نَمَّ ولا حقد ولا حسد يوماً ..



الباب الثانى

آفات اللسان

- الكلام فيما لا يعنيك .
- فضول الكلام .
- الخوض فى الباطل
- المراء والجدل .
- الخصومة .

آفات اللسان

عجيب حقاً أمر هذا اللسان تراه مع صغر حجمه فيصلاً تعرف به ذات البشر ، ويستبين منه عمق الرجال ودرجاتهم من الفنون والثقافة ، ومكانتهم العقلية والفكرية ، وتجاربهم فى الحياة العامة ، وحنكتهم وذكاؤهم .. الخ .

وكثيراً ما أوقع اللسان أمة فى الهلاك .. وكثيراً ما قاد جيشاً إلى الهاوية ، وكثيراً ما أودى بحياة جمع من البشر ، لسوء حركته ، وتعذر إلجامه .

وعجيب حقاً أمر هؤلاء الذين يصابون بنكبات من جراء ألسنتهم ولم يقدروا على إلجامه وإلزامه فالإنسان مخلوق وُهِبَ العقل المحكم والأعضاء الفاعلة .. والمفروض أن هذه النكبات حافزة على إلزامه أن يلزم نفسه وهواه . فيتحكم فى كلماته .

وعجيب أن يصعد بشر بين البشر ويأخذ مكانه عندهم بلسانه فقط .. فليس كل المشاهير وأصحاب الجاه والمكانة يمتلكون ثروة علمية أو مادية .. ولكنك ترى بعضهم يمتلكون معرفة بآفات اللسان ، فيزدادون حرصاً عليه ، فيلزمونه أن يتحرك دون فائدة .. فيظهر عليهم الكمال والاتزان البشرى ، فيصلون إلى مكانة بين البشر .. فسبحان الله .

وللسان مكانة بين الأعضاء فكما هو نقمة على صاحبه إن أساء استعماله ، فهو نعمة كبرى ومنة عظمى ..

يقول الشيخ الغزالى رحمه الله :

« اللسان من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة ، فإنه صغير جِرْمه ، عظيم طاعته وجُرمه إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ، ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفى ، فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شىء إلا والعلم متناول له .. وهذه خاصية لا توجد فى سائر الأعضاء فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور والآذان لا تصل إلى غير الأصوات ، واليد لا تصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء .. واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحدّ ، له فى الخير مجال رحب ، وله فى الشر ذيل سحب ، فمن أطلق عذبة اللسان ، وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار[1] إلى أن يضطره إلى البوار ، ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه إلا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته فى عاجله وآجله ، وعلم ما يحمد فيه اطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير ، وأعصى الأعضاء على اللسان فإنه لا تعب فى إطلاقه ولا مؤنة فى تحريكه .

وقد تساهل الخلق فى الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصايده وحبائله ،وإنه أعظم آلة الشيطان فى استغواء الإنسان »[2] .

خطر اللســــان

وبهذا يتبين لنا خطر اللسان ومدى هذا الخطر فى حياة الناس ، ونتبين لماذا مدح الإسلام الصمت ورغب فيه .

---

(١) أى عميق .

(٢) الاحياء (٣ / ١٠٤) ط . الحلبى .

عن عبد الله بن سفيان عن أبيه قال : « قلت يا رسول الله : أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك ؟ قال : قل : آمنت بالله ثم استقم ، قال : قلت : فما أتقى ؟ فأومأ إلى لسانه »(٣) .

وعن عقبة بن نافع قال : « قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك »(٤) .

وعن معاذ بن جبل قال : « قلت يا رسول الله أو نؤاخذ بما نقول ؟ فقال : ثكلتك أمك يا ابن جبل ، وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم »(٥) .

وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبى ويقول : يا لسان قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم ، فقيل له : يا أبا عبد الرحمن ، أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته ؟ فقال : لا بل سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه »(٦) .

وعن البراء بن عازب قال : « جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، قال : أطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فإن لم تُطِق فَكُفّ لسانك إلا من خير »(٧) .

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يضع حصاة فى فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد .

وقال عبد الله بن مسعود : والله الذى لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان .

وقال الأوزاعى : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله : « أما بعد فإن

(٣) أخرجه الترمذى وصححه النسائى .

(٤) أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن .

(٥) أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

(٦) أخرجه الطبرانى وابن أبى الدنيا والبيهقى بسند حسن .

(٧) أخرجه ابن أبى الدنيا بإسناد جيد .

من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » .

وقال الحسن : تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت ، فقال له : مالك يا أبا الأبحر ألا تتكلم فقال له : أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت .

وقال أبو بكر بن عياش : « اجتمع أربعة ملوك ملك الهند وملك الصين ، وكسرى وقيصر .. فقال أحدهم : أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل ، وقال الآخر : إنى إذا تكلمت بكلمة ملكتنى ولم أملكها ، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكنى ، وقال الثالث : عجيب للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن ترجع لم تنفعه ، وقال الرابع : أنا على رد ما لم أقل أقدر منى على رد ما قلت .

فإذا تساءل متسائل عن : لماذا هذه المكانة والفضل للصمت ؟ .. « فليعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء ، وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات فهذه آفات كثيرة وهى سباقة إلى اللسان لا يثقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب فإن ذلك من غوامض العلم .. ففى الخوض خطر ، وفى الصمت سلامة .. فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ، ومن حسابه في الآخرة فقد قال الله تعالى : ﴿ **ما يلْفِظَ مِنْ قَولٍ إلّا لَدِيْه رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾[8] .

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمرٌ وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه

(٨) سورة ق : ١٨ .

ضرر ولا منفعة ..

وأما الذى هو ضرر محض فلابد من السكوت عنه وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفى بالضرر .. وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلا يبقى إلا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجاً يخفى دركه فيكون الإنسان مخاطراً ومن عرف دقائق آفات اللسان نجا بإذن الله وهى :

الكلام فيما لا يعنيك

مما لا شك فيه أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات كالغيبة والنميمة والكذب والمراء .. الخ وغيرها وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه فإنك مضيع به زمانك ، ومحاسب على عمل لسانك ، وتستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان يتضح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيراً لك ، فكم من كلمة يبنى بها قصر فى الجنة ، ومن قدر على أن يكنز كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه وردة لا ينتفع بها كان خاسراً خسراناً مبيناً ، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى ، واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه – وإن لم يأثم – قد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً هكذا قال النبي ﷺ ، بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله[٩] .

وقد قال رسول الله ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا

(٩) الأحياء (٣ / ١٠٨) ط . الحلبى .

يعنيه »[١٠] .

وقال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول : خمس لهن أحبُّ إلىَّ من الدرهم الموقوفة : لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد موضعاً ، فإنه رُبَّ متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه ، فعنت ولا تمار حليماً ولا سفيهاً ، فإن الحليم يقليك ، والسفيه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به ، وأعفه مما تحب أن يعفيك منه وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاحترام .

وقيل للقمان الحكيم : ما حكمتك قال : لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا يعنىنى .

وقال عمر رضى الله عنه « لا تتعرض لما لا يعنيك واعتزل عدوك ، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى » ..

« وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به فى حال ولا مآل » ..

مثاله : أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار وما وقع لك من الوقائع وما استحسنته من الأطعمة والثياب وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر وإذا بالغت فى الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشىء مما خلقه الله تعالى ، فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك وأنى تسلم من هذه الآفات ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك ، وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع .. هذا إذا كان الشىء مما لا

---

(١٠) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة وقال : حديث غريب .

يتطرق إلى السؤال عنه آفة ، وأكثر الأسئلة منها آفات فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلاً فتقول له : هل أنت صائم ؟ فإن قال لك نعم .. كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات وإن قال لا كان كاذباً ، وإن سكت كان مستحقراً لك ، وتأذيت به ، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب فى حيلة الدفع وكذلك سؤالك عن سائر عباداته وكذلك سؤالك عن المعاصى ، وعن كل ما يخفيه منها ، وسؤالك عما حدث به غيرك ، فتقول له : ماذا تقول ؟ وفيم أنت ؟

وكذلك ترى إنساناً فى الطريق فتقول من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فإن ذكره تأذى به واستحيا ، وإن لم يصدق وقع فى الكذب وكنت السبب فيه وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدرى فيجيب من غير بصيرة ..

ولست أعنى بالتكلم فيما لا يعنى هذه الأجناس ، فإن هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر ، وإنما مثال ما لا يعنى ما روى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً ، ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم فجعل يتعجب مما رأى ، فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال : نعم الدرع للحرب فقال لقمان : الصمت حكم وقليل فاعله ، أى حاصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال .. وقيل إنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال ..

فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر ، وهتك ستر ، وتوريط فى رياء وكذب وهو مما لا يعنى وتركه من حسن الإسلام فهذا حده .

الباعث والعلاج

وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه أو المباسطة

بالكلام على سبيل التعدد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها ..

وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين .. هذا علاجه من حيث العلم[11] .

وأما من حيث العمل فعليه أن يتحكم فى نفسه ويستعين بالله دائماً وأن يكثر من التوبة والاستغفار ومحاسبة النفس قبل النوم ، فإن كثرة المحاسبة وطَرْق باب المولى عز وجل يرقى قلب الإنسان فينطلق نحو طريق الله رب العالمين ..

فضول الكلام

وفضول الكلام أيضاً مذموم لأنه يتناول الخوض فيما لا يعنى على قدر الحاجة ، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره ، ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثالثة فضول أى فضل عن الحاجة وهو أيضاً مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر .

قال عطاء بن أبى رباح : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو أن تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لا بد لك منها ، أتنكرون أن عليكم حافظين .. كراماً كاتبين .. عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحى أحدكم إذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دنياه .

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى .. قال الله عز وجل : ﴿ **لَا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ**

(11) الإحياء (3 / 110) .

مَعْروفٍ أو إصْلاحٍ بين النَّاسِ ﴾[١٢] .

وقال ﷺ : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأنفق الفضل من ماله »[١٣] .

فانظر كيف حدث من الناس فى ذلك فأمسكوا فضل المال ، وأطلقوا فضل اللسان .

وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال : قدمت على رسول الله ﷺ فى رهط من بنى عامر ، فقالوا : أنت والدنا ، وأنت سيدنا ، وأنت أفضلنا علينا فضلاً ، وأنت أطولنا علينا طَوْلاً ، وأنت الجفنة الغراء ، وأنت وأنت ، فقال : قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان »[١٤] .

وقال ابن مسعود : أنذركم فضول كلامكم حسب امرىء من الكلام ما بلغ به حاجة .

وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول : أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذا .

وقال الحسن : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل .

وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفراً ينظرون ما يقول ويخبرونه بأنه مر فى السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه ، فسأله سليمان عن ذلك فقال : عجبت من الملائكة على رؤوس الناس ما أسرع ما يكتبون ، ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون .

وقال الحسن : من كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه ..

---

(١٢) سورة النساء : ١١٤ .

(١٣) أخرجه البزار بسند ضعيف .

(١٤) أخرجه أبو داود والنسائى .

الخوض فى الباطل

وهو الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال النساء ، ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتنعم الأغنياء ، وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام .. وأما الكلام فيما لا يعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه،نعم . من يكثر الكلام فيما لا يعنى لا يُؤْمَن عليه الخوض فى الباطل ، وأكثر الناس يتجالسون للمشاهدة والاستماع والاستمتاع بالحديث ، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض فى الباطل ، وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا وفى هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها .. قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة »(١٥) .

وكان علقمة يقول : « كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحرث » .

وقال النبي ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يُضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا »(١٦) .

وقال أبو هريرة : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها فى جهنم ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها فى أعلى الجنة .

وقال ﷺ : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً فى الباطل »(١٧) .

---

(١٥) أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن .

(١٦) أخرجه ابن أبى الدنيا عن أبى هريرة بسند حسن وللشيخين والترمذى نحوه .

(١٧) أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث قتادة مرسلا ، ورجاله ثقات ، ورواه الطبرانى موقوفا عن ابن مسعود بسند صحيح .

وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **وكُنَّا نخُوضُ مَع الخَائِضين** ﴾[18] وبقوله تعالى : ﴿ **فلَا تَقْعُدوا معَهم حتَّى يخُوضُوا فى حَديثٍ غَيْرِه إنّكم إذاً مِثْلهم** ﴾[19] .

وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم : « توضئوا فإن بعض ما تقولون شر من الموت » فهذا هوالخوض فى الباطل ، بل هو الخوض فى ذكر كثير من المحظورات .

المـراء والجـــدال

المراء والجدال منهى عنه ذلك أنه لن يصل فاعلهما مع الآخر بحال إلى الحق ، لأن المقصد قمع الآخر وليس الوصول إلى الحق .

فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه »[20] .

وقال أيضاً : « ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل »[21] .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : « من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل » .

وقال مسلم بن يسار : « إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغى الشيطان زلته » .

وقال عيسى عليه السلام : « من كثر كذبه ذهب جماله ، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه » .

---

(١٨) سورة المدثر : ٤٥ .

(١٩) سورة النساء : ١٤٠ .

(٢٠) أخرجه الترمذى عن ابن عباس .

(٢١) أخرجه الترمذى عن أبى أمامة وصححه .

قال فى الإحياء : « وَحدُّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه ، إما فى اللفظ وإما فى المعنى ، وإما فى قصد المتكلم ، وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدق به وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه ، والطعن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير ، وذلك يكون تارة من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطغيان اللسان ، وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله » .

وأما فى المعنى فبأن يقول : ليس كما تقول ، وقد أخطأت فى وجه كذا وكذا ..

وأما فى قصده فمثل أن يقول : هذا الكلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وإنما أنت فيه صاحب غرض وما يجرى مجراه ، وهذا الجنس إن جرى فى مسألة علمية ربما خص باسم الجدل ، وهو أيضاً مذموم ، بل الواجب السكوت أو السؤال فى معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة أو التلطف من التعريف لا فى معرض الطعن .

وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه .. ..

وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروهاً عند المجادل يجب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ، ونقص صاحبه ، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه .

دوافع المراء والجدل

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها ..

أما إظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس ، وهى من مقتضى ما فى العبد

من طغيان دعوى العلو والكبرياء ، وهى من صفات الربوبية ..

وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنه يقتضى أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان ، وإنما قوتهما المراء والجدال .. فالمواظب على المراء والجدال مقوٍّ لهذه الصفات المهلكة ، وهذا مجاوز حد الكراهية بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدح فى قائله بكل ما يتصور له فيثور الشجار بين المتمارين كما يثور الهراش بين الكلبين يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعلم نكاية وأقوى فى إفحامه وإلجامه ..

علاج المراء والجدل

وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله والسبعية الباعث له على تنقيص غيره .. وعليه المواظبة وكسر شهوة النفس حتى يتمكن منها ويعسر الصبر عنه .

وروى أن أبا حنيفة قال لداود الطائى : « لم آثرت الانزواء ؟ قال : لأجاهد نفسى بترك الجدال ، فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم قال : ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد علىّ منها » وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه تعسر عليه الصبر عند ذلك جداً ..

وأكثر ما يغلب الجدال فى المذاهب والعقائد ، فإن المراء طبع ، فإن ظن أن له عليه ثواباً اشتد عليه حرصه ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض بل ينبغى للإنسان أن يكف عن أهل القبلة وإذا رأى مبتدعاً تلطف فى نصحه فى خلوة لا بطريق الجدل ، فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه فى التلبيس وأن ذلك صفة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا ، فتستمر البدعة فى قلبه بالجدل وتتأكد فإذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل

بنفسه وتركه »[٢٢] ا.هـ .

الخصومة

– قال تعالى : (**وَمِنَ النَّاس مَنْ يُعْجبكَ قَوْلُه فى الحياةِ الدُّنْيَا ، ويُشْهِد الله عَلَى مَا فى قَلْبه وَهُوَ أَلدُّ الخِصَامِ ، وإذَا تولَّى سَعَى فى الأرض لِيفسِدَ فيها وَيُهلِكَ الحَرْثَ والنسْلَ واللهُ لاَ يحبُّ الفَسَاد وإذَا قيل لَهُ اتق الله أخذتهُ العِزَّةُ بالإثم فحسْبُهُ جهنَّمُ وَلبِئسَ المِهَادُ**)[٢٣] .

– وأخرج الترمذى وقال غريب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قال رسول الله ﷺ « كفى بك أن لا تزال مخاصماً » .

– وأخرج البخارى « وأبغض الرجال إلى الله الألد الأخصم » أ.هـ أى كثير الخصومة .

– وأخرج الشافعى فى الأم عن على كرم الله وجهه أنه وكل فى خصومة وهو حاضر قال :

وكان يقول : « ان الخصومة لها قحما وأن الشيطان يحضرها » وقحما بضم القاف وبالمهملة المفتوحة أى شدة ..

يقول ابن حجر الهيثمى فى « الزواجر » معلقاً :

« عَدُّ ما ذُكِر هو صريح ما مر عن البخارى فى الأولى وفى معناها ما بعدها وهو ظاهر . ثم رأيت من عد الفجور فى المخاصمة كبيرة وأطلق فى المراء والجدال أنهما كبيرتان وفيه نظر ، فمن ثَمَّ قيدت بالمذموم ، ومما يؤكد ذلك قول النووى عن بعضهم أنه قال : « ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ، ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة » .

وفى أذكار النووى فان قلت لابد للانسان من الخصومة لاستيفاء

---

(٢٢) الإحياء (٣ / ١١٤) .
(٢٣) سورة البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٦ .

حقوقه ، فالجواب ما أجاب به الغزالى : أن الذم إنما هو لمن خاصم بباطل أو بغير علم كوكيل القاضى فإنه يتوكل قبل أن يعرف أن الحق فى أى جانب ويدخل فى الذم من طلب حقاً لكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد والكذب للإيذاء أو التسليط على خصمه وكذلك من يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره وكذلك من يخلط الخصومة بكلمات تؤذى وليس له إليها ضرورة فى التوصل له إلى غرض فهذا هو المذموم بخلاف المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على الحاجة من غير قصد عناد ولا إيذاء ففعله هذا ليس مذموماً ولا حراماً لكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً ، لأن ضبط اللسان فى الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب فإذا هاج الغضب حصل الحقد بينهما حتى يفرح كل واحد منهما بمساءة الآخر ويحزن بمسرته ويطلق اللسان فى عرضه فمن خاصم فقد تعرض لهذه الآفات وأقل ما فيها اشتغال القلب حتى أنه يكون فى صلاته وخاطره معلق بالمحاجة والخصومة فلا يبقى حاله على الاستقامة والخصومة وكذا المراء .

والخصومة مبدأ الشر ، وكذا المراء والجدال فينبغى للإنسان أن لا يفتح عليه باب الخصومة إلا لضرورة لابد منها وعند ذلك يحفظ لسانه وقلبه عن آفاتها ، قال بعض المتأخرين : وعدم قبول شهادة وكلاء القاضى مسألة غريبة . ولا غرابة فيها بالنسبة لأكثر وكلاء القضاة لانطوائهم فى وكالاتهم على مفاسد قبيحة شنيعة وكبائر بل فواحش فظيعة .

قال الغزالى : ومما يذم المراء والجدال والخصومة ، فالمراء طعنك فى كلام لإظهار خلل فيه لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مرتبتك عليه . والجدال هو ما يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها . والخصومة لجاج فى الكلام ليستوفى به مالاً أو غيره ويكون تارة ابتداء وتارة اعتراضاً ، والمراء لا يكون إلا اعتراضاً ..

قال النووى : الجدال قد يكون بحق بأن يكون للوقوف على الحق وإظهاره وتقريره ، وقد يكون بباطل بأن يكون لمدافعة حق أو بغير علم .

قال تعالى : ﴿ ولا تُجادِلُوا أَهْلَ الكِتابِ إلّا بالّتى هِى أحْسَنُ ﴾[٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ وجَادِلْهُم بالتى هِىَ أحْسَنُ ﴾[٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ ما يُجادِلُ فى آياتِ الله إلّا الّذينَ كَفرُوا ﴾[٢٦] ، وعلى ذلك التفصيل تتنزل هذه النصوص وغيرها مما ورد فى مدحه تارة وذمه أخرى.[٢٧] .

البحث فى كون الخصومة كبيرة أم صغيرة

نقل الشيخان عن صاحب العدة « أن من الصغائر كثرة الخصومات وإن كان الشخص محقاً » ، قال الأذرعى : « وقد فهما منه أنه أراد بالصغائر المعاصى التى يأثم فاعلها كما هو المتبادر والمشهور فى اصطلاح الفقهاء ويجوز أن لا يريد ذلك بل أراد عد جملة منه ومن غيره مما ترد به الشهادة وإن لم يأثم به وذكر تلميذه فى الخادم نحوه فقال : « والظاهر أنه أراد الأعم من ذلك ومما يقتضى ردّ الشهادة من منقص المروءة ، ولهذا ذكر من جملتها المحق فى الخصومة فإنه لا يقول أحد بتأثيمه وإنما هو باب ترك المروءة وكذا الضحك عن غير عجب ونحوه .

فإن قلت فاطلاق الصغيرة على ما لا إثم فيه خارج عن الاصطلاح .

قلت : المراد أن حكمها حكم الصغيرة فى رد الشهادة إذا أصر عليها .

وقد ذكر الرافعى فى الكلام على المروءة أن من اعتاد ترك السنن والرواتب وتسبيحات الركوع والسجود ردت شهادته لتهاونه بالسنن فهذا صريح فى أن المواظبة على ارتكاب خلاف المسنون ترد الشهادة به مع أنه لا إثم فيه .

وقد أطلق الحليمى أن رد السائل صغيرة ، وقال فى الإحياء « إن المباح

---

(٢٤) سورة العنكبوت : ٤٦ .

(٢٥) سورة النحل : ١٢٥ .

(٢٦) سورة غافر : ٤ .

(٢٧) الزواجر (٦٣٤) دار الشعب .

يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج ، فقد أطلق لفظ الغيرة على ما لا يحرم » .

فظهر بهذا أن ما بحثه الرافعى فى الخصومات وصوبه النووى ليس كما قالا ، وأنه لا يلاقى كلام صاحب العدة فإنه لم يقل أنه معصية كما أن تارك السنن ليس بعاص وترد شهادته للتهاون ولا شك أن كثرة الخصومات وعدم الاغضاء والتجاوز يورث ضراوة وجراءة ، وفى معنى الاكثار فى الخصومة بغير علم كوكلاء القاضى صرح به الغزالى ونقله عنه النووى فى الاذكار » ا.هـ[٢٨] .

* * *

ومن آفات اللسان أيضا : التقعر فى الكلام وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيهات والمقومات .. الخ .. والتصنع والتكلف يؤدى إلى عدم مقابلة المراد باللفظ فيخرج منه ما لا يحمد عقباه ..

ومن آفات اللسان : الفحش والسب وبذاءة اللسان واللعن ، وكذا الغناء والشعر : لأن الغناء يُرغّب فى الدنيا ويُزهّد فى الآخرة والشعر مجال لانطلاق العاطفة فيخرج من الشاعر ما لا يتفق مع مبادىء الانسانية والفطرة البشرية ولذلك قال تعالى : (**وَالشُّعَرَاءُ يَتبعهُمُ الغَاوُونَ**)[٢٩] ، وكذا فان المزاح من آفات اللسان .. لأن المزاح تنتعش وقته النفس فلا تدرى ما تقول .

ومن آفاته : الوعد الكاذب ، وافشاء السر ، والسخرية والاستهزاء ، والكذب فى القول واليمين .

* * *

فالعاقل من ألجم لسانه ليسلم من عواقبه .. فعواقبه وخيمة .. والعقلاء يدركون مصاب الانسان عامة فيحذرون منها ويخططون لتفاديها .. نسأل الله السلامة من كل آفة وداء ..

* * *

(٢٨) الزواجر (٦٣٥) .
(٢٩) سورة الشعراء : ٢٢٤ .

الباب الثالث

دوافع الغيبة

- التنافس على الدنيا .
- الغضب .
- الجهل العام .
- المادية الحديثة .

دوافع الغيبة

الرغبة فى الدنيا .. والجاه .. والسلطان .. من دوافع الغيبة .. لأنه يظن أن فلاناً منافساً له فى معايشه .. فينفس عن نفسه بانزاله منزلة أهل السوء .. فيقع بذلك فى المحظور ..

ولذا تجد الأسواق أكثر مكان انتشارا للغيبة ..

ولقد جاءت الحضارة الحديثة فجعلت الحياة بين الناس مادية بحتة .. لا هَمَّ لهم إلا جمع المال من حله ومن غير حله .. فزادت من انتشار هذا الداء فى هذا العصر .

ومن دوافع الغيبة .. التنافس على شيء ما .. كالتنافس على شراء بيت أو على زواج امرأة .. أو التنافس على مركز .. الخ .

ومن عوامل انتشار الغيبة فى هذا العصر بُعْدُ الناس عن العلم والمساجد فلم يفقهوا حكم الغيبة فى الاسلام .. ولم يدركوا عظم خطر اللسان وآفاته .. فخاضوا فى الباطل .

ومن عوامل انتشار الغيبة .. الفراغ .. فلا يجد الانسان شاغلا له إلا الهتك فى أعراض الناس .

ولذا تجد الغيبة أكثر انتشاراً بين النساء الجاهلات اللائى لا يعرفن القراءة ولا الكتابة ولا يجدن تسلية ومرحاً الا التجمع وهتك أعراض الناس .

قال في الإحياء : « اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ، ولكن يجمعها أحد عشر سبباً ، ثمانية منها فى حق العامة وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة .

أما الثمانية :

فالأول :

أن يشفى الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه فإنه إذا هاج غضبه يشفى بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب فى الباطن فيصير حقداً ثانياً فيكون سبباً دائماً لذكر المساوىء ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .

الثانى :

موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة فى الصحبة وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة فى السراء والضراء ، فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوىء .

الثالث :

أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقاً ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول ما من عادتى الكذب فإنى أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت .

الرابع :

أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذى فعله وكان من حقه أن

يبرىء نفسه ولا يذكر الذى فعل فلا ينسب غيره إليه أو يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له فى الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه فى فعله .

الخامس :

إرادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك .

السادس :

الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد فإن ذلك يستدعى جناية من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق .

السابع :

اللعب والهزل والمطايبة وتزكية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب .

الثامن :

السخرية والاستهزاء استحقاراً له فإن ذلك قد يجرى فى الحضور ، ويجرى أيضاً فى الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التى هى فى الخاصة فهى أغمضها وأدقها لأنها شرور خبأها الشيطان فى معرض الخيرات ، وفيها خير ، ولكن شاب الشيطان بها الشر :

الأول :

أن تنبعث من الدين داعية التعجب فى إنكار المنكر والخطأ فى الدين فيقول : ما أعجب ما رأيت من فلان فإنه قد يكون به صادقاً ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه فى إظهار تعجبه فصار به مغتاباً وآثماً من حيث لا يدرى ، ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهى قبيحة وكيف يجلس بين يدى فلان وهو جاهل .

الثانى :

الرحمة وهو أن يفتن بسبب ما يبتلى به فيقول : مسكين فلان قد غمنى أمره وما ابتلى به فيكون صادقاً فى دعوى الاغتمام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً ، فيكون غمه ورحمته خيراً وكذا تعجبه ، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدرى ، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه .

الثالث :

الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يظهر على غيره أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء ..

فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذراً فى ذكر الاسم وهو خطأ .. بل المرخص فى الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم[1] .

---

(١) الإحياء (٣ / ١١٤) ط الحلبى .

فعن عامر بن واثلة : « أن رجلاً مر على قوم فى حياة رسول الله ﷺ فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إنى لأبغض هذا فى الله تعالى فقال أهل المجلس لبئس ما قلت والله لننبئنه ثم قالوا يا فلان — لرجل منهم — قم فأدركه وأخبره بما قال ، فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله ﷺ وحكى له ما قال وسأله أن يدعوه فدعاه وسأله فقال : قد قلت ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : لم تبغضه ؟ فقال : أنا جاره وأنا به أخبر ، والله ما رأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة قال : فاسأله يا رسول الله ، هل رآنى أخرتها عن وقتها ، أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها؟ فسأله فقال : لا ، فقال : والله ما رأيته يصوم شهراً قط إلا هذا الشهر الذى يصومه البَرُّ والفاجر قال : فأسأله يا رسول الله هل رآنى قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئاً ؟ فسأله عنه فقال : لا ، فقال : والله ما رأيته يعطى سائلًا ولا مسكيناً قط ولا رأيته ينفق شيئاً من ماله فى سبيل الله إلا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر قال : فاسأله يا رسول الله ، هل رآنى نقصت منها أو عاكست فيها طالبها الذى يسألها ؟ فسأله فقال : لا ، فقال ﷺ للرجل : قم فلعله خير منك »[٢] .

دفع دوافع الغيبة

قلنا : من دوافع الغيبة الرغبة فى الدنيا والشهرة والجاه والتنافس .. الخ . ويتساءل متسائل : وهل يمكن دفع هذه الدوافع قبل الوقوع فى المحظور ، قلنا : نعم ..

فإن النفس تعج بوساوس الشر .. فتحدث نفسها به فتنسج نسيجاً من البغضاء والكراهية والغضب فتدفع الإنسان إلى الوقوع فى المحظور ..

والعاقل من رأى ذلك عنده فأسرع إلى زجر نفسه وإحكام عقله للبعد عن

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح .

هذا المحظور ..

وأقوى علاج لهذه النفس أن يعودها على الزهد .. فبالزهد ينتفى دافع الغيبة « الرغبة فى الدنيا » فينأى بها عن المحظور بل وعن كل رذيلة ..

الزهد لدفع دوافع الغيبة

قال رجل ليحيى بن معاذ : متى أدخل حانوت التوكل ، وألبس رداء الزاهدين ، وأقعد معهم ، فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك إلى حد لو قطع الله الرزق عنك ثلاثة أيام لم تضعف نفسك ، فأما ما لم تبلغ إلى هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ، ثم لا آمن عليك أن تفتضح ..

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه : ترك الحرام ، وهو زهد العوام ، والثانى : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص ، والثالث : ترك ما يشغل عن الله ، وهو زهد العارفين ..

وهذا الكلام من الإمام يأتى على جميع ما تقدم من كلام العلماء ، وهو من أجمع الكلام ، وهو يدل على أنه رضى الله عنه من هذا العلم بالملأ الأعلى ، وقد شهد الشافعى رحمه الله بإمامته فى ثمانية أشياء « أحدها الزهد » .

والذى أجمع عليه العارفون : أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا ، وأخذه فى منازل الآخرة ، وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد ، كالزهد لعبد الله ابن المبارك ، وللإمام أحمد ، ولوكيع ، ولهناد بن السرى ، ولغيرهم .

ومتعلقه ستة أشياء ، لا يستحق العبد اسم « الزهد » حتى يزهد فيها . وهى المال ، والصعود ، والرياسة ، والناس ، والنفس ، وكل ما دون الله .

وليس المراد رفضها من الملك . فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما ، ولهما من المال والملك والنساء ما لهما ، وكان نبينا ﷺ أزهد البشر على الإطلاق ، وله تسع نسوة .

وكان على بن أبى طالب ، وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان – رضى

الله عنهم – من الزهاد مع ما كان لهم من الأموال .

وكان الحسن بن على رضى الله عنه من الزهاد مع أنه كان من أكثر الأمة حباً للنساء ونكاحاً لهن ، وأغناهم .

وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد مع مال كثير ، وكذلك الليث ابن سعد من أئمة الزهاد ، وكان له رأس مال يقول : لولا هو لتمندل بنا هؤلاء ..

ومن أحسن ما قيل فى الزهد ، كلام الحسن أو غيره : ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة – إذا أصبت بها – أرغب منك فيها ، لو لم تصبك ، فهذا من أجمع كلام فى الزهد وأحسنه[3] .

سئل المحاسبى رحمه الله : ما الذى يقوينى على الزهد فى الدنيا بما حضر من الجواب عندك .

قال : إن الذى يقوى على ترك الدنيا : معرفة القلب بسوء عواقبها ، وكثرة الوقوف للحساب على ما أخذ منها ، ودوام الاشتغال بها عن خالقها ، وخوف العقاب على مثاقيل الذر منها .

قيل له : صف لى حالة أجد العذوبة بها فى تركها بلا مكابدة .

قال : بتركها موافقة لله عز وجل فى تركها ، رجاء وأملاً فى الوصول إلى النعيم فى جوار الله ، والأنس بقربه .

قيل له : دلنى على حالة من غير ما وصفت ، تزيد على قدر علمى ، ليتوحش من الدنيا قلبى ، وأعلم أن الناس متفاوتون فى تركها .

قال : يا فتى : قلب قرعه التنبيه ، فدله وأراه ذل العبودية لها ، فضن بنفسه عن خدمتها ، فاستحيا من الله عز وجل أن يراه خادماً لها ، فرمى بها عن قلبه ، وانقطع إلى خدمة سيده ، وتعزز بملك ربه ، فرحلت الدنيا عن قلبه ، إذ علم أن فى خدمته لها شغلاً عن خدمة غيره ، فألبسه الله رداء عمله ، واستغنى

---

(3) مدارج السالكين لابن القيم – ط السنة المحمدية (3 / 12) .

بخروج خوف الفقر من قلبه ، ونفى التعب فى ثبوت أسباب الحيلة عن نفسه ، فأعتقها من رق عبوديتها ، واعتز أن يكون خادماً لها بعزة العزيز الذى أعزه بالاعتزاز عنها .

فصار غنياً من غير مال ، وعزيزاً من غير عشيرة ، وجرت ينابيع الحكمة من قلبه ، ونفذت بصيرته ، وسمت همته ، وقرب من محبته ، وقطع عن نفسه أسباب حيلته ، ووصل الوهم إلى منتهى منيته ، فتراقى وارتفع ووصل إلى روح الفرج من هموم الأطماع وعذاب الحرص .

قيل له : ما علاقة عذاب الحرص ؟

قال : الطمع فيما لا يستحقه ، واشتغال القلب بما لا يناله .. كما قال ابن شبرمة :

حتَّى مِتّ أنت فى دُنياك مُشتغلٌ ... وعَامل الله عن دُنياك مَشْغول[٤] .

فعند الزاهدين يستوى مدرها وحجرها ، فعلام الكراهية ، وعلام الحقد والغضب ، فمن صفا قلبه وتجرد من حب الذات والطمع فى الدنيا كان أقرب الناس إلى الاستقرار النفسى فلا يجدن نفسه على كراهية من أحد أو حاقداً له أو حاسداً له على ما أنعم الله عليه ..

فطوبى للعقلاء الذين لا يطمعون فيما فى أيدى الناس .. وطوبى للنبلاء الذين يدركون بما لاح لهم من فطرتهم النقية ، وخبرتهم الذكية الزهد فيما فى أيدى الناس للوصول إلى قلوبهم .

وطوبى للأذكياء الذين أدركوا الدنيا وما عليها وما فيها من متاع زائل ومن عرض لا يدوم .. وإنما يدوم علمهم وصفاؤهم به وما قدمته أيديهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .. وطوبى لمن أدركوا أن أولى المطامع والأحقاد والمادة ، وأولى الرياسة والجاه والسلطان إنما يضعون على عاتقهم حملاً ربما لم يستطيعوا أن يحملوه أو يحسنوا استغلاله .. وسيسألون عنه أمام الله رب العالمين ..

---

(٤) القصد والرجوع إلى الله للمحاسبى (بتصرف) (٥٠) تحقيق الأستاذ / عبد القادر عطا – ط دار التراث العربى .

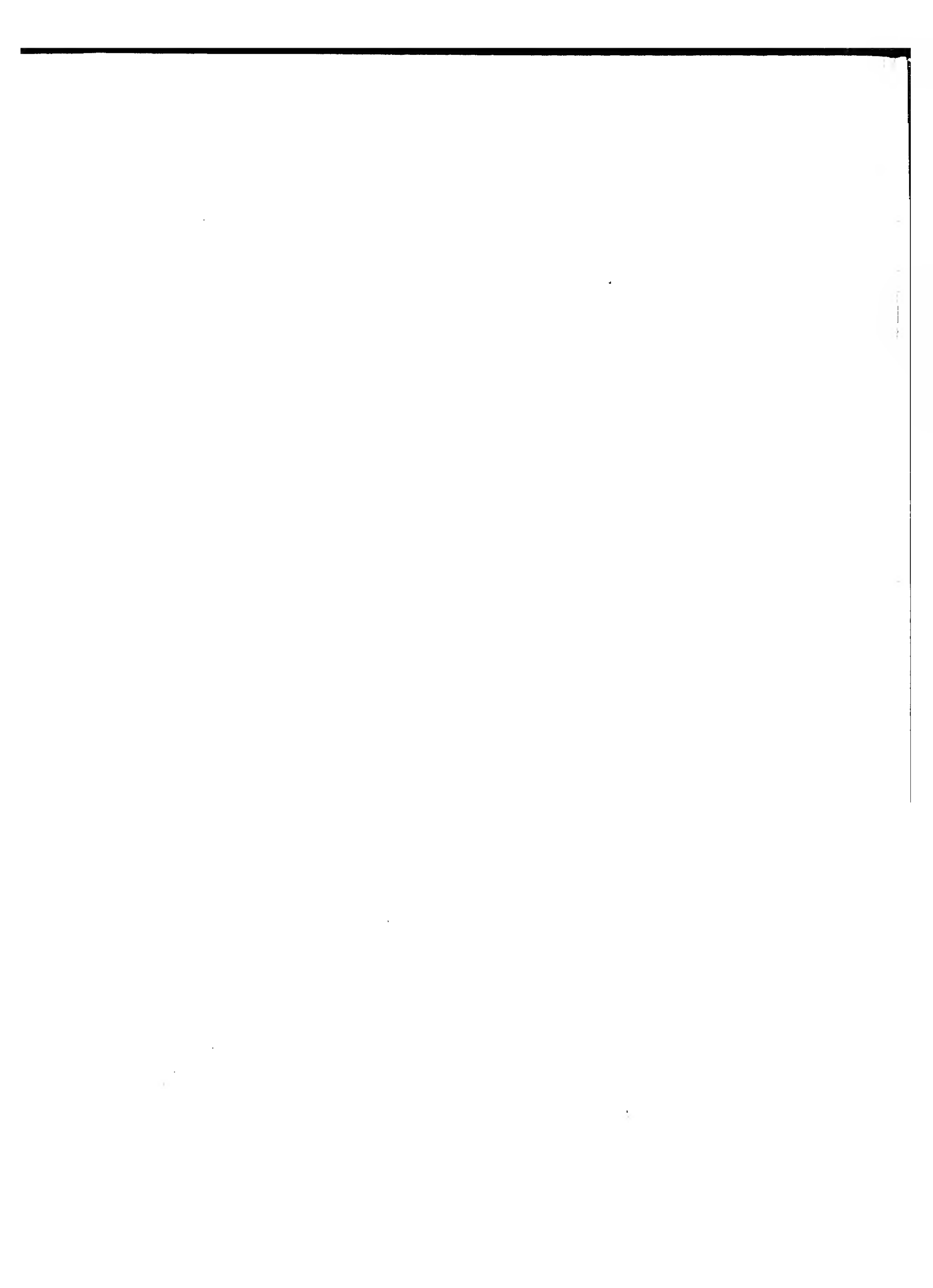
طوبى لمن أدرك أنه بنقاء قلبه وصفائه أعلى وأرفع من أولئك أصحاب الملايين والكنوز ..

طوبى لكل مجتهد استطاع أن يدرك مفاهيم الحياة السليمة بعيدة عن دنس المادة ، وتدنيس الحضارة .. والله ولى التوفيق .



الباب الرابع

تحريم الغيبة



تحريم الغيبة

قال تعالى : ﴿ **ولا يغْتَبْ بعْضكُم بعْضاً أيُحبُّ أحدُكُم أنْ يأكُلَ لحمَ أخيه ميْتاً فكَرِهتمُوه** ﴾[1] .

تبدأ الآية بنهى المؤمنين عن الظن والتجسس بقوله : ﴿ **يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا اجْتنِبوا كَثيراً مِنَ الظنِّ إنَّ بعضَ الظنِّ إثْمٌ ولا تَجسّسُوا ولا يَغْتبْ** ... ﴾ .

فهو نهى عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً فليجتنب كثيراً منه احتياطاً .

وقال مالك عن أبى الزناد وعن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً »[2] .

وقوله : « **ولا تجسسوا** » أى على بعضكم بعضاً والتجسس غالباً يطلق فى الشر ومنه الجاسوس ، وأما التحسس فيكون غالباً فى الخير كما قال عز وجل إخباراً عن يعقوب أنه قال : ﴿ **يا بَنيَّ اذْهبُوا فَتحسَّسُوا مِنْ يُوسفَ وأخِيه ولا تيأَسُوا مِنْ رَوْحِ الله** ﴾[3] .

---

(١) سورة الحجرات : ١٢ .

(٢) أخرجه مسلم والترمذى نحوه .

(٣) سورة يوسف : ٨٧ .

وقد يستعمل كل منهما فى الشر كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ... الحديث »[٤] » .

قال الأوزاعى : التجسس : البحث عن الشيء ، والتحسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم ، والتدابر : الصرم .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يغْتَبْ بَعضُكم بَعْضاً** ﴾ فيه نهى عن الغيبة وقد فسرها الشارع كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود عن أبى هريرة قال : « قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال ﷺ : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال ﷺ : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » وكذا رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

وروى أبو داود عن عائشة قالت : قلت للنبي ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا ، قال عن مسدد تعنى قصيرة ، فقال ﷺ « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » قالت : وحكيت له إنساناً فقال ﷺ : « ما أحب أنى حكيت إنساناً وأن لى كذا وكذا » وكذا رواه الترمذى عن عائشة أيضاً وقال : حسن صحيح .

قال العلامة الحافظ ابن كثير فى تفسيره :

« والغيبة محرمة بالإجماع ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحة كما فى الجرح والتعديل والنصيحة كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر « ائذنوا له وبئس أخو العشيرة » .

وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضى الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم : « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » .

وكذا ما جرى مجرى ذلك ، ثم بقيتها على التحريم الشديد وقد ورد فيها الزجر الأكيد ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال عز وجل « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه »[٥] أى كما

---

(٤) الحديث رواية مسلم والترمذى المشار إليه سابقا .

(٥) سورة الحجرات : ١٢ .

تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا ذاك شرعاً فإن عقوبته أشد من هذا ، وهذا من التنفير عنها والتحذير منه كما قال ﷺ فى العائد فى هبته « كالكلب يقىء ثم يرجع فى قيئه » ، وقد قال : « ليس منا مثل السوء » .

وثبت فى الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال فى خطبة حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا »(٦) .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق فى بيوتها أو قال فى خدورها فقال : « يامعشر من آمن لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن تبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته »(٧) .

وعن ابن عمر من طريق آخر « ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله » .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم »(٨) .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : « قلنا يارسول الله : حدثنا ما رأيت ليلة أسرى بك ؟

قال : ثم انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير رجال ونساء موكل بهم رجال يعمدون إلى عرض جنب أحدهم فيجدون منه الجلدة مثل النعل ثم يضعونها فى فِيِّ أحدهم فيقال له كل كما أكلت وهو يجد من أكله الموت يا محمد

---

(٦) تفسير ابن كثير (٤ / ١٤) ط الحلبى .

(٧) أخرجه أبو يعلى .

(٨) تفرد به أبو داود .

لو يجد الموت وهو يكره عليه فقلت يا جبرائيل من هؤلاء قال : هؤلاء الهمازون اللمازون أصحاب النميمة ، فيقال أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه وهو يكره على أكل لحمه »[٩] .

عن عبيد مولى رسول الله ﷺ « أن امرأتين صامتا وإنهما كادتا تموتان من العطش – أراه قال بالهاجرة – فأعرض عنه أو سكت عنه فقال : يانبى الله إنهما والله قد ماتتا أو كادتا تموتان فقال : ادعهما . فجاءتا قال : فجىء بقدح أوعس فقال لإحداهما : قيىء فقاءت من قيح ودم وصديد حتى قاءت نصف القدح ثم قال للأخرى : قيىء فقاءت قيحاً ودماً وصديداً ولحماً ودماً عبيطاً[١٠] وغيره حتى ملأت القدح ثم قال : إن هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس »[١١] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى قد زنيت ، فأعرض عنه حتى قالها أربعاً فلما كان فى الخامسة قال : زنيت ؟ قال نعم . قال : وتدرى ما الزنا ؟ قال : نعم أتيت منها حراماً ما يأتى الرجل من امرأته حلالاً قال : ما تريد إلى هذا القول ؟ قال : أريد أن تطهرنى قال : فقال رسول الله ﷺ : أدخلت ذلك منك فى ذلك منها كما يغيب المرود فى المكحلة والعصا فى البئر ؟ قال : نعم يارسول الله قال : فأمر برجمه فرجم فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال : أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، قالا : غفر الله لك يا رسول الله ، وهل يؤكل هذا ؟ قال ﷺ : فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه ، والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار

---

(٩) أخرجه أبو حاتم ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٢١٥) ط الحلبى .

(١٠) العبيط : الطرى الخالص لا خلط فيه .

(١١) أخرجه البيهقى ، وأحمد من طريق آخر .

الجنة ينغمس فيها »[١٢] .

وعن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون الناس »[١٣] .

قال السدى فى قوله تعالى : ﴿ **أيحبُّ أحدُكم أنْ يأكلَ لحْمَ أخيه مَيْتاً ؟** ﴾ زعم أن سلمان الفارسى رضى الله عنه كان مع رجلين من أصحاب النبي ﷺ فى سفر يخدمهما ويخف لهما وينال من طعامهما وأن سلمان رضى الله عنه لما سار الناس ذات يوم وبقى سلمان رضى الله عنه نائماً لم يسر معهم فجعل صاحباه يكلماه فلم يجداه فضربا الخباء فقالا : ما يريد سلمان أو هذا العبد شيئاً غير هذا أن يجىء إلى طعام مقدور ، وخباء مضروب فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً فانطلق فأتى رسول الله ﷺ ومعه قدح له فقال يا رسول الله : بعثنى أصحابى لتؤدمهم إن كان عندك قال ﷺ : « ما يصنع أصحابك بالأدم ؟ قد ائتدموا » فرجع سلمان رضى الله عنه يخبرهما بقول رسول الله ﷺ فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فقالا : لا والذى بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا ، قال رسول الله ﷺ : « إنكما قد ائتدمتما بسلمان بقولكما » قال ونزلت ﴿ **أيحبُّ أحدُكم أنْ يأكلَ لحْمَ أخِيه مَيْتاً ؟** ﴾ إنه كان نائماً .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أكل من لحم أخيه فى الدنيا قرب إليه لحمه فى الآخرة فيقال له كُلْه ميتاً كما أكلته حياً - قال - فيأكله ويكلح ويصيح »[١٤] .

---

(١٢) أخرجه أبو يعلى . قال ابن كثير : إسناده صحيح (٤ / ٢١٥) ط الحلبى .

(١٣) أخرجه الإمام أحمد .

(١٤) أخرجه أبو يعلى ، قال ابن كثير : غريب جدا (٤ / ٢١٥) .

توبة المغتاب

وقوله تعالى بعدها : ﴿ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ أى تواب على من تاب إليه رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه ..

قال الجمهور من العلماء : طريق المغتاب للناس فى توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على أن لا يعود . وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع ، أن يتحلل من الذى اغتابه ..

وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريقه إذن أن يثنى عليه بما فيه فى المجالس التى كان يذمه فيها وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته لتكون تلك بتلك وسيأتى مفصلاً إن شاء الله .

جزاء المغتاب

وعن النبي ﷺ أنه قال : « من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد سبه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال »[١٥] .

وعن النبي ﷺ أنه قال : « ما من امرىء يخذل امرءاً مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمته وينتقى منه من عرضه إلا خذله الله تعالى فى مواطن يحب فيها نصرته ، وما من امرىء ينصر امرءاً مسلماً فى موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله عز وجل فى مواطن يحب فيها نصرته »[١٦] .

---

(١٥) أخرجه الإمام أحمد . وروى أبو داود نحوه هو وما بعده .

(١٦) تفرد به أبو داود .

من أقوال العلماء

قول الحسن فى الغيبة :

روى الربيع بن صبيح أن رجلاً قال للحسن : يا أبا سعيد إنى أرى أمراً أكرهه قال : وماذاك يا ابن أخى قال : أرى أقواماً يحضرون مجلسك يحفظون عليك سقط كلامك ثم يحكونك ويعيبونك فقال : يا ابن أخى : لا يكبرن هذا عليك ، أخبرك بما هو أعجب قال : وماذاك ياعم ، قال : أطعت نفسى فى جوار الرحمن وملوك الجنان والنجاة من النيران ، ومرافقة الأنبياء ، ولم أطع نفسى فى السلامة من الناس إنه لو سلم من الناس أحد لسلم منهم خالقهم الذى خلقهم فإذا لم يسلم خالقهم فالمخلوق أجدر أن لا يسلم .

قول الجصاص فى الغيبة :

يقول أبو بكر الرازى المعروف بالجصاص فى قوله تعالى : ﴿ **أيُحبُّ أحدُكُم أنْ يأكُلَ لحمَ أخيه ميْتاً فكَرِهتُمُوه** ﴾[17] :

« تأكيد لتقبيح الغيبة والزجر عنه من وجوه ، أحدها : أن لحم الإنسان محرم الأكل فكذلك الغيبة ، والثانى : أن النفوس تعاف أكل لحم الإنسان من جهة الطبع فلتكن الغيبة عندكم بمنزلته فى الكراهة ، ولزوم اجتنابه من جهة موجب العقل ، إذ كانت دواعى العقل أحق بالاتباع من دواعى الطبع ، ولم يقتصر على ذكر الإنسان الميت حتى جعله أخاه وهذا أبلغ ما يكون فى التقبيح والزجر فهذا كله إنما هو فى المسلم الذى ظاهره العدالة ولم يظهر منه ما يوجب تفسقه كما يجب علينا تكذيب قاذفه بذلك فإن كان المقذوف بذلك مهتوكاً فاسقاً ، فإن ذكر ما فيه من الأفعال القبيحة غير محظور كما لا يجب على سامعه النكير على قائله .

ووصفه بما يكرهه على ضربين ، أحدهما : ذكر أفعاله القبيحة . والآخر :

---

(١٧) سورة الحجرات : ١٢ .

وصف خلقته وإن كان مشيناً على جهة الاحتقار له وتصغيره لا على جهة ذمه بها ولا عيب على نحو ما روينا عن الحسن فى وصفه الحجاج بقبح الخلقة ، وقد يجوز وصف قوم فى الجملة ببعض ما إذا وصف به إنسان بعينه كان غيبة محظورة ثم لا يكون غيبة إذا وصف به الجملة على وجه التعريف ، كما روى أبو حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : « يا رسول الله إنى تزوجت امرأة قال : هل نظرت إليها فإن فى أعين الأنصار شيئاً » فإنه لم يكن غيبة ، وجعل وصف عائشة الرجل فى الحديث غيبة لأن ذلك كان من النبي ﷺ على وجه التعريف لا على جهة العيب وهو كما روى عنه أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً عراض الوجوه صغار العيون فطس[١٨] الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة »[١٩] فلم يكن ذلك غيبة وإنما كان تعريفاً لهم صفة القوم »[٢٠] .

قول الغزالى فى معنى الغيبة وحدودها :

يقول الشيخ الغزالى فى الإحياء فى معنى الغيبة وحدودها : « اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو فى خلقه أو فى فعله أو قوله أو فى دينه أو فى دنياه ، حتى فى ثوبه وداره ودابته .. أما البدن فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان .

وأما النسب فبأن تقول : أبوه قبطى أو هندى أو فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال ، أو شيء ما يكرهه كيفما كان .

وأما الخلق فبأن تقول : هو سيء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه .

---

(١٨) الفطس : الصغر والضآلة .

(١٩) المجان : أى عريضة كالمجان .

(٢٠) أحكام القرآن للجصاص (٣ / ٤٠٨ ، ٤٠٩) ط دار الكتاب العربى – بيروت .

وأما فى أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك : هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس .

وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك : إنه قليل الأدب متهاون بالناس أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً أو يرى لنفسه الحق على الناس أو أنه كثير الكلام كثير الأكل نئوم ينام فى غير وقت النوم ويجلس فى غير موضعه .

وأما فى ثوبه فكقولك إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب .

وقال قوم : « لا غيبة فى الدين لأنه ذم ما ذمه الله تعالى فذكره بالمعاصى وذمه بها يجوز بدليل ما روى أن رسول الله ﷺ ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال : « هى فى النار »[(٢١)] ، وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال : « فما خيرها إذن »[(٢٢)] .

فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعريف الأحكام بالسؤال ، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه فى غير مجلس الرسول ﷺ والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله ﷺ فى حد الغيبة وكل هذا وإن كان صادقاً فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه بدليل بما روى أن النبي ﷺ قال : « هل تدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكرهه قيل : أرأيت إن كان فى أخى ما أقوله قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته »[(٢٣)] .

قال معاذ بن جبل[(٢٤)] : ذكر رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا ما أعجزه فقال ﷺ : « اغتبتم أخاكم قالوا : يا رسول الله قلنا ما فيه قال : إن قلتم ما ليس فيه

---

(٢١) أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه .

(٢٢) أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق .

(٢٣) أخرجه مسلم عن أبى هريرة .

(٢٤) أخرجه الطبرانى بسند ضعيف .

فقد بهتموه »[٢٥] .

فالمقصد ذكر الناس لغير حاجة من وراء هذا الذكر ، فإن كان الشيء المذكور سبباً فى بيان معنى أو تقريب مقصد .. الخ فهو حلال لا شيء فيه ، وإن كان من غير قصد بأن خرج وسط كثرة الكلام وتزاحم الألفاظ فلا شيء فيه أيضاً ، وإن خرج سهواً فإن السهو مرفوع عن الأمة .

والعقلاء المدركون لآفات اللسان وجب عليهم بعد هذا أن يجنبوا أنفسهم الوقوع فى المآزق ومواطن الضعف فيلجموا ألسنتهم ويحذروا منها ، فيصلون بذلك إلى قمة المجد ، وذروة الاتزان .

هل تقتصر الغيبة على اللسان ؟

اعلم وفقك الله أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل فى الغيبة وهو حرام فمن ذلك قول عائشة رضى الله عنها : دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدى أنها قصيرة فقال عليه السلام « اغتبتيها »[٢٦] ، ومن ذلك المحاكاة كأن يمشى متعارجاً أو كما يمشى فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم فى التصوير والتفهيم ، ولما رأى رسول الله ﷺ عائشة حاكت امرأة قال : « ما يسرنى أنى حاكيت إنساناً ولى كذا وكذا »[٢٧] .

وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين . وذكر المصنف شخصاً معيناً وتهجية كلامه فى الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكر ما سيأتى بيانه .. وأما قوله قال : كذا فليس ذلك غيبة إنما الغيبة

---

(٢٥) إحياء علوم الدين (٣ / ١٤٠ ، ١٤١) . ط الحلبى .

(٢٦) سبق تخريجه .

(٢٧) أخرجه أبو داود والترمذى وصححه .

التعرض لشخص معين إما حى وإما ميت ، ومن الغيبة أن تقول : بعض من مر بنا اليوم أو بعض من رأيناه إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم ، فأما إذا لم يفهم عينه جاز .

كان رسول الله ﷺ إذا كره من إنسان شيئاً قال : « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا »(٢٨) . فكان لا يعين . وقولك بعض من قدم من السفر أو بعض من يدعى العلم إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهى غيبة وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين الغيبة والرياء ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان ، فيقول : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل فى طلب الحطام أو يقول : نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء .

وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول : ما أحسن أحوال فلان ما كان يقصر فى العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره فى ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه فيكون مغتاباً ومرائياً ومزكياً نفسه فيجمع بين ثلاث فواحش ، وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم بأنه يتبعهم ويحيط بمكابدة عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم .

ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا ينسبه له بعض الحاضرين فيقول : سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصغى إليه ، ويعلم ما يقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسم آلة له فى تحقيق خبثه وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلاً منه وغروراً ، وكذلك يقول : ساءنى ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه فيكون كاذباً فى دعوى الاغتمام وفى إظهار الدعاء له ،

---

(٢٨) أخرجه أبو داود عن عائشة ورجاله رجال الصحيح .

بل لو قصد الدعاء لأخفاه فى خلوته عقيب صلاته ولو كان يغتم لاغتم أيضاً بإظهار ما يكرهه وكذلك يقول : ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو فى كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره ، وخفى قصده ، وهو لجهله لا يدرى أنه قد تعرض لمقت أعظم ما تعرض له الجهال إذا جاهروا .

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول : عجب ما علمت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخير وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلائه فإن كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك المغتاب ..

فقد روى عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه « إن فلاناً لنئوم »[29] ثم إنهما طلبا أدماً من رسول الله ﷺ ليأكلا به الخبز فقال ﷺ : « قد ائتدمتما ؟ فقالا : ما نعلمه ، قال : بلى إنكما أكلتما من لحم أخيكما »[30] . فانظر كيف جمعهما ، وكان القائل أحدهما والآخر مستمعاً . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما أقعص[31] الرجل كما يقعص الكلب « انهشا من هذه الجيفة »[32] فجمع بينهما فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه وإن قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه ، ولا يكفى فى ذلك أن يشير باليد أى اسكت أو يشير بحاجبه وجبينه ، فإن ذلك استحقار للمذكور بل ينبغى أن يعظم ذلك فيندب عنه صريحاً .. وفى الأثر : « من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار » وقد ورد فى نصر المسلم فى الغيبة وفى

---

(٢٩) لنئوم : أى يمشى بالنميمة .

(٣٠) أخرجه أبو العباس الدنولى من رواية عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلا نحوه .

(٣١) أقعص : أى مات كما يموت الكلب .

(٣٢) سبق ، أخرجه أبو داود والنسائى من حديث أبى هريرة بإسناد جيد .

فضل ذلك أخبار كثيرة[٣٣] .

هل هناك علاقة بين الغيبة والرياء ؟

مما لا شك أن المرائى إنما يبذل قصارى جهده للظهور أمام الآخرين ، مريداً رفعة بين قوم ، ومكانة بينهم ..

ومن دواعى الظهور أن يذكر قرناءه وأمثاله ويحاول جهده تقليل شأنهم وإعلام محدثه أنه أعلى منه مكانة أو أرفع منه سلوكاً أو أفطن منه .. الخ ، فيقع حينئذ فى الغيبة دون أن يدرى ، وقد أراد شيئاً آخر ..

ولقد قلنا فى مواضع كثيرة : إن طريق المعصية طريق سهل يوصل بعضه إلى بعض ، كذلك طريق الإيمان سهل ميسر يوصل بعضه إلى بعض .. وبالله التوفيق .. وطوبى للنبلاء ..

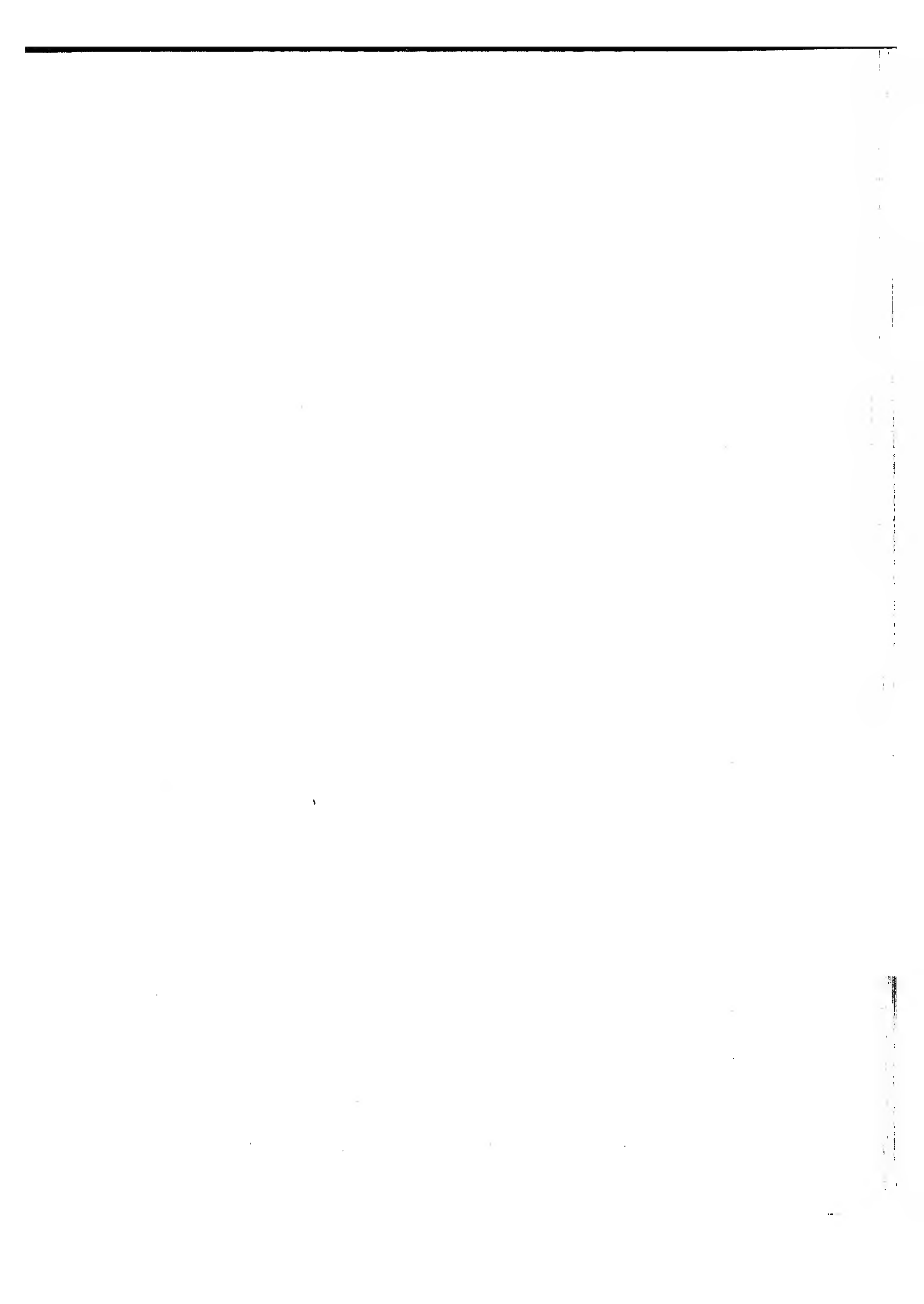
✿ ✿ ✿

(٣٣) الإحياء (٣ / ١٤٢) بتصرف .



الباب الخامس

علاج الغيبة



علاج الغيبة

أولًا : بالقراءة والتعلم :

فلا يخفى على أحد أن العلم إنما ينمى إدراك العقل ، ويرفع مستواه فى الاستنباط وبلوغ المراد ، ونيل المقاصد من خلال التخطيط السليم ، والتوكل على الله ..

والذين يكثرون القراءة إنما يقدمون لعقولهم زاداً تنمو به ، فتصل إلى الاتزان الإنسانى الذى يفرق بين الخطأ والصواب .. فيجيد الأحكام والسكون ويجيد معرفة مصلحة نفسه ، ويجيد إبعاد النفس عن المآزق ، لأنه يطلعه على مسالك الحياة واتساع رقعتها ، وما يدور حولها من أحداث ، فبالقراءة يستطيع الإنسان التحكم فى نفسه وإبعاد لسانه عن الغيبة .. لذا تجد أكثر المثقفين بعيدين عن الغيبة والنميمة .. وترى أكثر الأميين والجهلاء من صفاتهم الغيبة والنميمة .. إلا من رحم ربى .

ثانيا : مخاطبة النفس وحسابها :

فإن النفس أمارة بالسوء ، يغلب عليها الخوض فى الباطل ، والميل إلى الهوى والشهوة ، والذين يكثرون من محاسبة النفس هادئى الطبع بعيدين عن المعاصى ..

سئل المحاسبى رحمه الله عن معنى المحاسبة ، قال : قيام العقل على حراسة

النفوس من خيانتها ، لتتفقد منها زيادتها من نقصانها .

قيل له : زدنى فى شرح البيان فى المحاسبة أجلى من هذا .

قال : تقدم بين يدى كل فعل تفعله لِمَ ؟ فإن كان لله مضيت فيه ، وإن كان لغير الله امتنعت عنه ، ولُمت نفسك على إشارتها إلى روح دواعى الهوى ، وعاقبتها على ذلك ، وأثبت عليها جهلها ، وبينت عند العقل فضيحتها ، وعرفت أنها عدوة لك ، لسوء فعلها ، وما دعتك إلى ما يقطعك عن خالقها .

قيل له : فمن أين مخرج المحاسبة ؟

قال : من مخاوف النقص ، وشين البخس والرغبة فى زيادة الأرباح لأن الشريك إنما يحاسب شريكه مخافة البخس والخسران ، وأمل رجاء كثرة الأرباح ، وكثرة زيادة البضاعة ، كما قال ذو النون لبعض العابدات : « بم تجدين الزيادة ؟ قالت : بالتفقد والمحاسبة » .

قيل له : فما معنى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم » ؟ قال : زيادة فى البصيرة ، وكيس فى الفطنة ، وسرعة إلى إثبات الحجة ، واتساع فى المعرفة ، وهذا على قدر لزوم القلب للتفتيش .

قيل له : بأى شيء يقوى العبد على محاسبة نفسه ؟ .

قال : بثلاث خصال :

أولاها : قطع العلائق التى تشغله عن جمع الهم على المحاسبة ، لأن من أراد أن يحاسب غريمه فرغ قلبه من الاشتغال .

والثانية : التفرد لها عن غيرها اختياراً منه ، لخوف الفوت لما أقل من المحاسبة .

والثالثة : الخوف من الله عز وجل أن يسائله عما فرط فيما بلغه على لسان نبيه عليه السلام حيث قال[1] : « للمؤمن أن يرى فى أربع ساعات : ساعة

---

(١) أخرجه أبو يعلى والبزار عن أبى هريرة ..

يحاسب فيها نفسه » الحديث .

قيل له : لم تخلفت القلوب عن محاسبة النفس ؟ .

قال : من غلبة الهوى والشهوة ، لأنهما ضد النظر والعلم والبيان ، فمن ثم تخلفت عن محاسبة النفوس ، وعميت عن النظر ، فلا ترى النفس جميلاً ترغب فيه ، ولا قبيحاً تأنف عنه .

قيل له : رحمك الله ، أخبرنى عن الهوى الذى حجبها عن المحاسبة .

قال : الهوى هو : تعلق النفوس بالشهوات ، وميلها إلى الراحات ، فعلى قدر الشهوات يتمكن منها الضعف ، فيستولى عليها الهوى .

قيل له : كيف أعاقب نفسي على ما جنت ؟

قال : تفرق بينها وبين محابها ، وتأخذ سوط الخشية لها ، بدوام الرعاية لها فى سعيها ، وتضاعف أورادها ، وتزيد فى كدها ، وتنقص من غذائها ، وتقطعها عن ملاذها ، وتجرعها غيظ التهديد زجراً لها ، حتى يغلب سلطان رعايتك سلطان كبرها ، فعند ذلك يافتى تذل فى نفسها ، وتخضع بعد كبرها ، وتسقط عن كلبها (أى سعرها وشرهها) وشرها[٢] .

وتمر على الاستقامة إلى خالقها ومن الله التوفيق .

ثالثاً : معجون العمل والعلم :

يقول الشيخ الغزالى :

« اعلم أن مساوى الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها .

وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة والآخر على التفصيل .

أما على الجملة فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار

(٢) القصد والرجوع إلى الله – المحاسبى – تحقيق الأستاذ / عبد القادر عطا – ط دار التراث العربى (٤٠ ، ٤١) .

التى رويت فى الغيبة ، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلاً عما استباحه من عرضه فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشبه عنده بآكل الميتة بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار ، وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاطبة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب »[٣] .

وروى أن رجلاً قال للحسن : بلغنى أنك تغتابنى فقال : ما بلغ من قدرك عندى أنى أحكمك فى حسناتى .

منها فهم العبد لما ورد من الأخبار فى الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفاً من ذلك وينفعه أيضاً أن يتدبر فى نفسه فإن وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه .. ففى الأثر : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » .

ومهما وجد عيباً فينبغى أن يستحى من أن يترك ذمه نفسه ويذم غيره بل ينبغى أن يتحقق أن عجز غيره فى نفسه فى التنزه عن ذلك العيب كعجزه وهذا إن كان ذلك عيباً يتعلق بفعله واختياره وإن كان أمراً خلقياً فالذم له ذم للخالق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها .

قال رجل لحكيم : ياقبيح الوجه قال ما كان خلق وجهى إلى فأحسنه وإذا لم يجد العبد عيباً فى نفسه فليشكر الله تعالى ، ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب جهل بنفسه وهو أعظم العيوب وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبته غيره له فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغى أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه .. فهذه معالجات جميلة .

أما التفصيل فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة فإن علاج العلة بقطع سببها .

---

(٣) الإحياء : (٣ / ١٤٥) .

أما الغضب فيعالجه بقوله : « إنى إذا أمضيت غضبى عليه فلعل الله تعالى يمضى غضبه علىّ بسبب الغيبة إذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره » ..

وقال ﷺ : « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء »[٤] .

وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : « يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق » .

وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغى أن تغضب لله أيضاً على رفقائك إذا ذكروه بالسوء فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهى الغيبة .

وما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا تدرى أنك تتخلص من سخط الناس أم لا تتخلص نفسك فى الدنيا بالتوهم وتهلك فى الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويصيبك ذم الله تعالى وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان .

وأما عذرك كقولك : إن أكلت الحرام ففلان يأكله ، وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله . فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائناً من كان . ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفه عقلك ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردى نفسها من قُلّة الجبل فهى أيضاً تردى نفسها ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت

---

(٤) أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

بالعذر وقالت العنز أكيس منى ، وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك .

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح فى غيرك فينبغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله ، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهماً ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئاً .

وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت فى الدنيا معذباً بالحسد فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة فكنت خاسراً نفسك فى الدنيا فصرت أيضاً خاسراً فى الآخرة لتجمع بين النكالين فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك ، فإذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضرك وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك ، وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل :

وإذا أرادَ اللهُ نشْـرَ فَضيـلة طُويتْ أتـاحَ لها لسـانَ حَسُـودِ

وأما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام . فلو تفكرت فى حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك ولو عرفت حالك لكنت أوْلى أن تضحك منك فإنك سخرت به عند نفرٍ قليل ، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار مستهزئاً بك وفرحاً بخزيك ومسروراً بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك .

وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ، ولكن حسدك إبليس فأضلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبراً لأنه المرحوم فيخرج عن كونه مرحوماً وتنقلب أنت مستحقاً لأن تكون مرحوماً

إذ حبط أجرك ، ونقصت من حسناتك وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب الغيبة ، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضاً لمقت الله عز وجل بالغيبة .

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط ، والتحقيق بهذه الأمور التى هى من أبواب الإيمان فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة .

هل تحرم الغيبة بالقلب ؟

النفس البشرية تعج بوساوس الشر ، فتحدث نفسها دائماً حديثاً ربما ظنت بالآخرين سوءاً ، ولكن الجوارح لا توافق هذه الأحاديث أحياناً ، فهل يكون حديث النفس حراماً ، أم لا ؟ .. تحدث فى هذه المسألة كثير من العلماء منهم الغزالى :

قال فى الإحياء : « اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوىء الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك ولست أعنى به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء » .

فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضاً معفو عنه ، ولكن المنهى عنه أن يظن ، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب فقد قال الله تعالى :

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا اجْتنِبُوا كَثيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بعْضَ الظنِّ إثْمٌ ﴾[5]
وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن

---

(٥) سورة الحجرات : ١٢ .

تعتقد فى غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع فى قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك فينبغى أن تكذبه فإنه أفسق الفساق ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنبأٍ فتبيَّنُوا أنْ تُصِيبُوا قَوْمَاً بجهَالَةٍ** ﴾[٦] . فلا يجوز تصديق إبليس وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به لأن الفاسق يتصور أن يصدق فى خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به حتى إن من استركه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها وما شربها أو حمل عليه قهراً فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها .. وقد جاء فى الأثر :

« إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يُظَنَّ به ظن السوء » فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغى أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر .

فإن قلت : فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث ؟ فنقول : أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان ، فينفر عنه نفوراً ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه . وفى الأثر :

« ثلاث فى المؤمن وله منهن مخرج ، فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه » . أى لا يحققه فى نفسه بعقد ولا فعل لا فى القلب ولا فى الجوارح . أما فى القلب فبتغيره إلى النفرة والكراهة . وأما فى الجوارح فبالعمل بموجبه والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ويلقى إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته ، وأما إذا أخبرك به عدل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذوراً لأنك لو كذبته لكنت جانياً على هذا العدل إذ ظننت به

---

(٦) سورة الحجرات : ٦ .

الكذب ، وذلك أيضاً من سوء الظن فلا ينبغى أن تحسن الظن بواحدة وتسيء بالآخر ، نعم ينبغى أن يبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه ..

وقد ورد فى الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو ، فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان عدلاً فلا تصدقه ولا تكذبه ولكن تقول في نفسك : المذكور حاله كان عندي في ستر الله ، وكان أمره محجوبا عني ، وقد بقى كما كان لم ينكشف لى شيء من أمره وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم فهذا قد يظن أنه عدل ، وليس بعدل فإن المغتاب فاسق ، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا فى أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغى أن تزيد فى مراعاته وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقى إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه فى السر ، ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه ، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقص لينظر إليك بعين التعظيم ، وينظر إليه بعين الاستحقار وتترفع عليه بإبداء الوعظ وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان فى دينك وينبغى أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته ، وأجر الإعانة له على دينه .

ومن ثمرات سوء الظن التجسس فإن القلب لا يقنع بالظن ، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً منهى عنه قال الله تعالى : ﴿ ولا تجسَّسُوا ﴾[7] فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهى عنه فى آية واحدة . ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه .

---

(٧) سورة الحجرات : ١٢ .

خطر التجســــس

نهى الإسلام عن التجسس لما فيه من خطر داهم ، فلكل بيت أسرار .. وفى كل جلسة ما يخفى عن الناس ..

فالاطلاع على الناس يفضح عروضهم ، ويكشف ما ستره الله عليهم .. لذا عد الإسلام التجسس جريمة من الجرائم ..

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ومن استمع إلى حديث قوم ، وهم له كارهون ، صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة ، ومن صور صورة عُذِّبَ أو كُلِّفَ أن ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ »[٨] .

وعن سهل بن ساعدة رضى الله عنه أن رجلاً اطلع على رسول الله ﷺ من حجر فى حجرة النبي ﷺ ، ومع النبي ﷺ مدراة يحك بها رأسه ، فقال النبي ﷺ : لو علمت أنك تنظر لطعنت بها فى عينك ، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر »[٩] .

وقوله : حجر : أى ثقب .وقوله : مدراة : أى المشط .

ونهى أن يدخل الرجل بيتاً قبل أن يستأذن ..

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من اطلع فى بيت قوم بغير اذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه »[١٠] .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن الاستئذان فى البيوت ، فقال : « من دخلت عينه قبل أن يستأذن ويسلم فلا إذن ، وقد عصى ربه » .[١١] .

---

(٨) رواه البخارى .

(٩) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

(١٠) رواه البخارى ومسلم وأبو داود .

(١١) رواه الطبرانى ورواته ثقات .

الغيبة الجائزة

تقتضى مصالح الناس العامة ومعايشهم الإفصاح عن أشياء خافية ، وصفات لا تظهر إلا فى هذه المواضع .. لذا رخص الإسلام فيها بشرط ألا تخرج عن طبيعتها ، وقد جمع هذه المواضع عالم جليل فقال :

لسْت غيْبة جوز فخُذها منظمة كأمثالِ الجوَاهِر
تظلّم واستَعنْ واستفْت حَذر وعرف واذكُرَنْ فسْق المجاهِر

فرفع الظلمة إلى أُولى الأمر للفصل فيها يحتم بيانها وبيان فاعلها وما اتصف به ..

والاستعانة على تغيير المنكر يتطلب بيانه ووصفه ..

والاستفتاء يحتاج أحياناً إلى كثير من البيان والشرح والإدلاء بالأوصاف ليتمكن المفتى من الفصل فى المسألة ..

والتحذير من المصائب أو من الفساق يتطلب البيان والوصف .. ومناداة الرجل بما عرف به ليس به أذى له ..

وذكر الفاسقين للحذر منهم ومجانبتهم بعيداً عن الغيبة ..

ولقد تحدث العلماء فى المسألة فتناولوها بالشرح والتفصيل والبيان .

ومن العلماء الذين تحدثوا عن المباح من الغيبة العلامة النووى قال فى رياض الصالحين :

« اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعى لا يمكن الوصول إليه إلا بها ، وهو ستة أسباب :

الأول :

التظلم ، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضى وغيرهما ممن له **ولاية ، أو قدرة على إنصافه** من ظالمه ، **فيقول** : ظلمنى فلان بكذا .

الثانى :

الاستعانة على تغيير المنكر ، ورد العاصى إلى الصواب ، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر : فلان يعمل كذا ، فازجره عنه ، ونحو ذلك ، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر ، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً .

الثالث :

الاستفتاء ، فيقول للمفتى : ظلمنى أبى ، أو أخى ، أو زوجى أو فلان بكذا ، فهل له ذلك ، وما طريقى فى الخلاص منه ، وتحصيل حقى ، ودفع الظلم ؟ ونحو ذلك ، فهذا جائز للحاجة ، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول : ما تقول فى رجل أو شخص ، أو زوج كان من أمره كذا ؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين ومع ذلك ، فالتعيين جائز .

الرابع :

تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم ، وذلك من وجوه :

منها جرح المجروحين من الرواة والشهود ، وذلك جائز بإجماع المسلمين ، بل واجب للحاجة .

ومنها المشاورة فى مصاهرة إنسان ، أو مشاركته ، أو إيداعه ، أو معاملته ، أو غير ذلك ، أو مجاورته ، ويجب على المشاور أن لا يخفى حاله ، بل يذكر المساوىء التى فيه بنية النصيحة .

ومنها إذا رأى متفقها يتردد إلى مبتدع ، أو فاسق يأخذ عنه العلم ، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك ، فعليه نصيحته ببيان حاله بشرط أن يقصد النصيحة ، وهذا مما يغلط فيه ، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد ، ويلبس الشيطان عليه ذلك ، ويخيل إليه أنه ينصحه فليتفطن بذلك .

ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها : إما بأن لا يكون صالحاً لها ، وإما بأن يكون فاسقاً ، أو مغفلاً ، ونحو ذلك فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ، ويولى من يصلح ، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ، ولا يغتر به ، وأن يسعى فى أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به .

الخامس :

أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر ، ومصادرة الناس ، وأخذ المكس ، وجباية الأموال ظلماً ، وتولى الأمور الباطلة ، فيجوز ذكره بما يجاهر به ، ويحرم ذكره بغيره من العيوب ، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه .

السادس :

التعريف ، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب كالأعمش ، والأعرج ، والأصم ، والأعمى ، والأحول ، وغيرهم جاز تعريفهم بذلك ، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص ، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى »[١٢] .

وتجد المباح من الغيبة فى « الإحياء » أكثر تفصيلاً ، فيقول الغزالى :

اعلم أن المرخص فى ذكر مساوىء الغير هو غرض صحيح فى الشرع لا يمكن التوصل إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة وهى ستة أمور :

الأول :

(التظلم) فإن من ذكر قاضياً بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتاباً عاصياً إن لم يكن مظلوماً ، أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . قال ﷺ : « إن لصاحب الحق مقالاً »[١٣] . وقال ﷺ : « مطل الغنى ظلم »[١٤] .. وقال عليه السلام : « ولى الواجد يحمل عقوبته وعرضه »[١٥] .

---

(١٢) رياض الصالحين للنووى – ط دار التراث العربى (٣٩٠ ، ٣٩١) .

(١٣) متفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(١٤) متفق عليه .

(١٥) أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث الشريد بإسناد صحيح .

الثانى :

(الاستعانة) على تغيير المنكر وردِ المعاصى إلى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضى الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضى الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام فذهب إلى أبى بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حَمٓ * تَنْزِيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ العَزيزِ العَليمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وقَابِلِ التَّوْبِ * شَدِيدِ العِقَابِ الآيـات »[١٦] . فتاب ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه ما لا ينفعه نصح غيره ، وإنما أباحه هذا بالقصد الصحيح ، فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراماً .

الثالث :

(الاستفتاء) كما يقول للمفتى : ظلمنى أبى ، أو زوجتى ، أو أخى فكيف طريقى فى الخلاص والأسلم التعريض بأن يقول : ما قولك فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ، ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبى ﷺ : « إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى أنا وولدى أفآخذ من غير علمه ، فقال : خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف »[١٧] فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها ﷺ إذ كان قصدها الاستفتاء .

الرابع :

تحذير المسلم من الشر فإذا رأيت فقيهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث

---

(١٦) سورة غافر : ١ – ٣ .

(١٧) متفق عليه من حديث عائشة .

لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق وكذلك من اشترى مملوكاً وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك فإن فى سكوتك ضرر المشترى ، وفى ذكرك ضرر العبد ، والمشترى أولى بمراعاة جانبه . وكذلك المزكى إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعناً وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله لا تصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية وإن علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به .

وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم : الإمام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه .

الخامس :

أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول .. روى أبو الزناد عن الأعرج ، وسلمان عن الأعمش ، وما يجرى مجراه ، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهوراً به . نعم إن وجد عنه معدلاً ، وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ولذلك يقال للأعمى البصير عدولاً عن اسم النقص .

السادس :

أن يكون مجاهراً بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور(١٨) والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ليس لفاجر حرمة » وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذ المستتر لابد من مراعاة حرمته .

---

(١٨) الماخور : حانة الخمر .

وقال الصلت بن طريف : قلت للحسن : الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال : لا ولا كرامة .

قال الحسن : ثلاثة لا غيبة لهم : صاحب الهوى والفاسق المعلن بفسقه والإمام الجائر .. فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره . نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم ..

وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال : إن الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه ، وإنك إذا لقيت الله تعالى غداً كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

ودليل ما سبق من حديث رسول الله ﷺ :

فعن عائشة رضى الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال : « ائذنوا له ، بئس أخو العشيرة »[١٩] .

وعن عائشة أيضاً قالت : قال رسول الله ﷺ « ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً »[٢٠] .

وعن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر أصاب الناس فيه شدة ، فقال عبد الله بن أبى : ﴿ **لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ** ﴾[٢١] وقال : ﴿ **لَئِنْ رَجَعْنَآ إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ** ﴾[٢٢] فأتيت رسول الله ﷺ ، فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله ابن أبى ، فاجتهد عينه : ما فعل ، فقالوا : كذب زيد رسول الله ﷺ ، فوقع فى نفسى مما قالوه شدة ، حتى أنزل الله تعالى تصديقى : ﴿ **إذا جآءك**

---

(١٩) متفق عليه .. واحتج به البخارى فى جواز غيبة أهل الفساد وأهل الريب .

(٢٠) رواه البخارى .

(٢١) سورة المنافقون : ٨ .

(٢٢) سورة المنافقون : ٧ .

المنافِقُونَ »[٢٣] . ثم دعاهم النبى ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم[٢٤] .

كفارة الغيبة

تنازع العلماء فى كفارة المغتاب وقد سبق سرد كلام العلامة ابن كثير ، ولكنهم اتفقوا جميعاً على توبته كخطوة أولى ..

التوبة :

قال تعالى : ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنُوا تُوبُوا إلى الله تَوْبةً نَصُوحاً** ﴾[٢٥] .

وعن أبى حمزة أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد ضله فى أرض فلاة »[٢٦] .

وقوله : « سقط » أى عثر عليه ووجده .

وقد قال العلماء : إن التوبة واجب من كل ذنب . وقد قسموها إلى قسمين :

الأول : المعصية التى بين العبد وربه ولا تتعلق بحق آدمى ، ولها ثلاثة شروط :

١ – أن يقلع عن المعصية .

٢ – أن يندم على فعلها .

٣ – أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً ، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

---

(٢٣) سورة المنافقون : ١ .

(٢٤) متفق عليه .

(٢٥) سورة التحريم : ٨ .

(٢٦) متفق عليه .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : الثلاثة السابقة وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كان له مال أو نحوه أخذه منه ، وإن كان قذفاً أو غيره مكنه منه أو سأله العفو ، وإن كانت غيبة استحلها منه .

وقالوا : « يجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى » هكذا ذهب النووى فى رياض الصالحين — باب التوبة .

وللعلماء فى كفارة المغتاب تفصيل وبيان .

قال فى إحياء علوم الدين :

« اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب فيخرج من مظلمته . وينبغى أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله إذ المرائى قد يستحل ليظهر من نفسه الورع ، وفى الباطن لا يكون نادماً فيكون قد قارف معصية أخرى » .

قال الحسن : يكفيه الاستغفار دون الاستحلال .

وقال مجاهد : كفارة أكلك لحم أخيك أن تثنى عليه وتدعو له بخير .

وسئل عطاء بن أبى رباح عن التوبة من الغيبة قال : أن تمشى إلى صاحبك فتقول له : كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت . وهذا هو الأصح ، وقول القائل العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف إذ قد وجب فى العرض حد القذف وتثبت المطالبة به .

بل فى الحديث الصحيح ما روى أنه ﷺ قال : « من كانت لأخيه عنده مظلمة فى عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولا درهم إنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته »[٢٧] .

وقالت عائشة رضى الله عنها — لامرأة قالت لأخرى : إنها طويلة

(٢٧) متفق عليه عن أبى هريرة .

الذيل – : قد اغتبتها فاستحلها . فإذن لابد من الاستحلال إن قدر عليه فإن كان غائباً أو ميتاً فينبغى أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات .

فإن قلت : فالتحليل هل يجب ؟ . فأقول : لا لأنه تبرع ، والتبرع فضل وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ فى الثناء عليه ، والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة فى يوم القيامة . وكان بعض السلف لا يحلل .

قال سعيد بن المسيب : لا أحلل من ظلمنى . وقال ابن سيرين : إنى لم أحرمها عليه فأحللها له إن الله حرم الغيبة عليه وما كنت لأحلل ما حرم الله أبداً .

فإن قلت : فما معنى قول النبي ﷺ : ينبغى أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن ؟ فيقول : المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالاً . وما قاله ابن سيرين حسن فى التحليل قبل الغيبة فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة .

فإن قلت : فما معنى قول النبي ﷺ : « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إنى قد تصدقت بعرضى على الناس »(٢٨) ؟.

فكيف يتصدق بالعرض ؟ ومن تصدق به فهل يباح تناوله ؟ فإن كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه ؟ فنقول : معناه أنى لا أطلب مظلمة فى القيامة منه ولا أخاصمه وإلا فلا تصير الغيبة حلالاً به ولا تسقط المظلمة عنه لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد وله العزم على الوفاء بأن لا تخاصم فإن رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق ، بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا ، وعلى الجملة فالعفو أفضل .

قال الحسن : إذا جثت الأمم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقم

---

(٢٨) أخرجه البزار وابن السنى والعقيلى فى الضعفاء عن أنس .. وإسناده ضعيف .

من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا العافون عن الناس فى الدنيا ، وقد قال الله تعالى :

﴿ خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلينَ ﴾[٢٩] .

فقال النبي ﷺ : « يا جبريل ما هذا العفو ؟ فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك ، وتعطى من حرمك »[٣٠] .

وروى عن الحسن أن رجلاً قال : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق ، وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىّ من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام[٣١] .

خلاصة

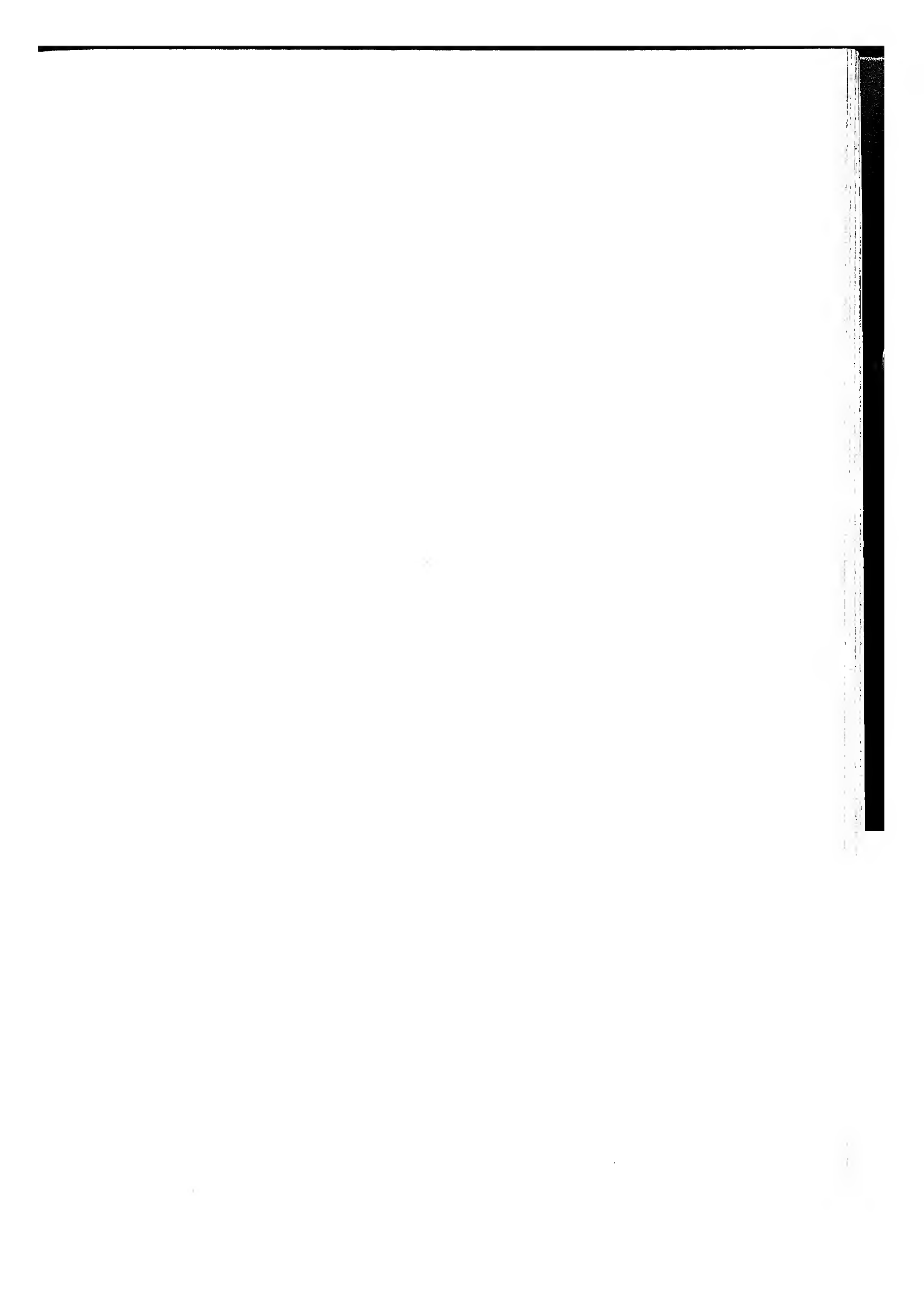
إن المغتاب عليه أن يتوب أولاً .. ثم يحاول جهده الذهاب إلى من اغتابه فيطلب منه العفو والسماح ويعلمه بمعرفته خطأه وتوبته .. وإنه اليوم جديد وليس كالأمس .. فإن قبل كان .. وإن لم يقبل فيكفر عن ذنبه بصدقة .. وإذا أخلص التوبة مع ربه كفته ..

وإن علم أن صاحبه لن يقبل اعتذاره وسيبطش به .. فليرسل إليه من يحدثه فى عفوه . وعليه أولاً وأخيراً بالتوبة والندم وعمل الصالحات لينجو من غضب ربه جل فى علاه .

(٢٩) سورة الأعراف : ١٩٩ .
(٣٠) متفق عليه عن حذيفة .
(٣١) الإحياء (٣ / ١٥١) .

الباب السادس

دوافع النميمة وعلاجها



دوافع النميمة وعلاجها

قال الله تعالى : ﴿ هَمازٍ مَشَّاءٍ بِنَميمٍ * منَّاعٍ للْخيرِ مُعْتَدٍ أثيمٍ * عُتُلٍّ بعْدَ ذَلِكَ زَنيمٍ ﴾[1] .

قال عبد الله بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذى لا يكتم الحديث ، وأشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ، ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا استنباطاً من قولهِ عز وجل ﴿ عتلّ بعدَ ذلِكَ زَنيم ﴾ والزنيم هو الدعيُّ ، وقال تعالى : ﴿ ويلٌ لكُلِّ هُمزَةٍ لُمزَةٍ ﴾[2] قيل : الهمزة النمام . وقال تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ الحطَبِ ﴾[3] قيل إنها كانت نمامة حمالة للحديث ، وقال تعالى : ﴿ فخَانتَاهُما فلَمْ يُغْنيا عنهُما مِنَ الله شَيْئاً ﴾[4] ، قيل : كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون .

قال ابن كثير فى تفسيره فى قوله تعالى : ﴿ عتلٍّ بعدَ ذلكَ زنيم ﴾ : (أما العتل فهو الفظ الغليظ الصحيح الجموع المنوع) .

فعن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأهل الجنة

(١) سورة القلم : ١٢ – ١٤ .

(٢) سورة الهمزة : ١ .

(٣) سورة المسد : ٤ .

(٤) سورة التحريم : ١٠ .

كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أنبئكم بأهل النار كل عتو جواظ مستكبر »[٥] .

قال أهل اللغة : الجعظرى : الفظ الغليظ ، والجواظ : الجموع المنوع ..

وعن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم قال : سئل رسول الله ﷺ عن العتل الزنيم فقال : « هو الشديد الخلق المصحح الأكول الشروب الواجد للطعام والشراب الظلوم للناس رحيب الجوف »[٦] .

وعن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « تبكى السماء من عبد أصح الله جسمه ، وأرحب جوفه وأعطاه من الدنيا مقضماً فكان للناس ظلوماً ، قال : فذلك العتل الزنيم »[٧] .

وقص غير واحد من السلف أن العتل هو المصحح الخلق الشديد القوى فى المأكل والمشرب والمنكح وغير ذلك .

وأما الزنيم فقال البخارى : حدثنا محمود حدثنا عبد الله بن إسرائيل عن أبى حصين عن مجاهد عن ابن عباس « **عتلّ بعدَ ذلك زنيمٍ** » قال : رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة . ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها وإنما الزنيم فى لغة العرب هو الدعى فى القول قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة . ومنه قول حسان بن ثابت يذم بعض كفار قريش :

وأنتَ زنيم نيطٍ فى آل هَاشم
كما نِيط خلْفَ الراكب القدح الفرْد

وقال آخر :

زَنيمٌ ليس يعرفُ مَنْ أبُوه بَغىُّ الأمِّ ذو حَسَبٍ لئيم

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمار بن خالد الواسطى حدثنا أسباط عن هشام

---

(٥) أخرجه الإمام أحمد .

(٦) أخرجه الإمام أحمد .

(٧) أخرجه ابن جرير .

عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله « زنيم » قال : الدعى الفاحش اللئيم ، ثم قال ابن عباس :

زَنيمٌ تَـداعاه الرجـالُ زيـادةً
كما زِيدَ فى عِرْضِ الأديمِ الأكارِعُ

وقال العوفى عن ابن عباس : الزنيم الدعى ويقال : الزنيم رجل كائن به زنمة يعرف بها ويقال : هو الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة ، وزعم أناس من بنى زهرة أن الزنيم الأسود بن يغوث الزهرى، وليس به . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أنه زعم أن الزنيم الملحق النسب .

قال سعيد : هوالمطلق بالقوم ليس منهم . وقد سئل عكرمة عن الزنيم : فقال : ولد الزنا . وقال الحكم بن أبان عن عكرمة فى قوله تعالى ﴿ **عتلّ بعدَ ذلِكَ زَنيم** ﴾ قال : يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة والزنماء من الشياه التى فى عنقها هنتان معلقتان فى حلقها . وقال الثورى عن جابر عن الحسن عن سعيد بن جبير قال : الزنيم الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها والزنيم الملصق[٨] .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة نمام »[٩] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال : « إنهما يعذبان ، وما يعذبان فى كبير .. بلى إنه كبير .. أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله »[١٠] .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ألا أنبئكم ما العضه ؟ هى النميمة ، القالة بين الناس »[١١] .

---

(٨) تفسير ابن كثير بتصرف (٤ / ٤٠٤) – ط دار التراث العربى .
(٩) متفق عليه .
(١٠) متفق عليه ، وهذا لفظ إحدى روايات البخارى .
(١١) رواه مسلم .

« العضه » : بفتح العين المهملة ، وإسكان الضاد المعجمة ، وبالهاء على وزن الوجه ، وروى :

« العضه » بكسر العين وفتح الضاد المعجمة على وزن العدة ، وهى : الكذب والبهتان ، وعلى الرواية الأولى : العضه مصدر ، يقال : عضه عضها ، أى : رماه بالعضه[12] .

وقال أبو الدرداء قال رسول الله ﷺ : « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليسيئه بها فى الدنيا كان حقاً على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار »[13] .

وفى الأثر : « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى فقالت : سعد من دخلنى فقال الجبار جل جلاله : وعزتى وجلالى لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس : لا يسكنك مدمن خمر ، ولا مصرٌّ على الزنا ، ولا قتَّات وهو النمام ، ولا ديوث ولا شرطى ، ولامخنث ، ولا قاطع رحم ، ولا الذى يقول علىَّ عهد الله أن أفعل كذا وكذا ثم لم يَفِ به » .

وروى كعب الأحبار أن بنى إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا فأوحى الله تعالى إليه : إنى لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة فقال موسى : يا رب من هو دلنى عليه حتى أخرجه من بيننا ، فقال تعالى : يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً .. فتابوا جميعاً فسقوا ..

ويقال : اتبع رجل حكيماً سبعمائة فرسخ فى سبع كلمات فلما قدم عليه قال : إنى جئتك للذى آتاك الله تعالى من العلم ، أخبرنى عن السماء وما أثقل منها ، وعن الأرض وما أوسع منها ، وعن الصخر وما أقسى منه ، وعن النار وما أحر منها ، وعن الزمهرير وما أبرد منه ، وعن البحر وما أغنى منه ، وعن اليتيم وما أذل منه .. فقال له الحكيم :

---

(١٢) رياض الصالحين للنووى (٣٩٣) – ط دار التراث العربى .

(١٣) رواه ابن أبى الدنيا موقوفا على أبى الدرداء ، والطبرانى مرفوعا بلفظ آخر .

« البهتان على البرىء أثقل من السماوات ، والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحر من النار ، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم » .

دوافع النميمة

دوافع النميمة هى نفس دوافع الغيبة .. إلا أن فى النميمة تزيد الكراهية وإرادة وقوع الشر بين البشر ..

ولقد أضافت المادية الحديثة إلى قلوب الناس النميمة بالطبع .. لأنه عند العجز عن تحقيق غرض أو دفع مضرة إنما يحاول نقل سقطات الناس إلى الآخرين فربما استفاد من جراء ذلك ، أو خلا له من عداوتهما أرضاً ..

حد النميمة

اسم النميمة إنما يطلق فى الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول : فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا . وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً فى المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السر ، وهتك الستر عما يكره كشفه بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغى أن يسكت عنه إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية ، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له . فأما إذا رآه يخفى مالاً لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر . فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً فى المحكى عنه كان قد جمع

بين الغيبة والنميمة .. فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكى عنه أو إظهار الحب للمحكى له أو التفرج بالحديث والخوض فى الفضول والباطل . وكل من حملت إليه النميمة وقيل له : إن فلاناً قال فيك كذا ، أو فعل فى حقك كذا ، أو هو يدبر فى إفساد أمرك ، أو فى ممالأة عدوك ، أو تقبيح حالك ، أو ما يجرى مجراه فعليه ستة أمور :

الأول :

أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الذينَ آمنُوا إنْ جَاءكَم فاسِقٌ بنبأٍ فَتبيَّنُوا أنْ تُصيبُوا قَوْماً بِجهَالَةٍ** ﴾[١٤] .

الثانى :

أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله ، قال الله تعالى : ﴿ **وأْمُرْ بالمعْرُوفِ وانْه عَنِ المنْكَرِ** ﴾[١٥] .

الثالث :

أن يبغضه فى الله تعالى ، فإنه بغيض عند الله تعالى ، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى .

الرابع :

أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى : ﴿ **اجْتَنِبُوا كَثيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بعضَ الظنِّ إثمٌ** ﴾ .

الخامس :

أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث للتحقق اتباعاً لقوله

---

(١٤) سورة الحجرات : ٦ .

(١٥) سورة لقمان : ١٧ .

تعالى : ﴿ ولا تَجسَّسُوا ﴾[16] .

السادس :

أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ولا تحكى نميمته فتقول : فلان قد حكى لى كذا وكذا فتكون به نماماً ومغتاباً ، وقد تكون قد أتيت ما عنه نهيت .

وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً فقال له عمر : إن شئت نظرنا فى أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية : ﴿ **إنْ جَاءكُمْ فاسِقٌ بِنَبأٍ فتَبَيَّنُوا** ﴾ ، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية : ﴿ **همَّازٍ مشَّاءٍ بِنَميمٍ** ﴾ ، وإن شئت عفونا عنك ، فقال : العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبداً .

وذكر أن حكيماً من الحكماء زار بعض إخوانه فأخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم : قد أبطأت فى الزيارة ، وأتيت بثلاث جنايات : بغضت أخى إلىَّ وشغلت قلبى الفارغ ، واتهمت نفسك الأمينة .

وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالساً وعنده الزهرى ، فجاء رجل فقال له سليمان : بلغنى أنك وقعت فىَّ وقلت كذا وكذا ، فقال الرجل : ما فعلت ولا قلت فقال سليمان : إن الذى أخبرنى صادق : فقال له الزهرى ، لا يكون النمام صادقاً ، فقال سليمان : صدقت ، ثم قال للرجل : اذهب بسلام .

وقال الحسن : « من نم إليك نم عليك » . وهذه إشارة إلى أن النمام ينبغى أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته ، وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة وهو ممن يسعون فى قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض .. قال تعالى : ﴿ **إنَّما السَّبيلُ على الَّذينَ يظْلِمونَ الناسَ ويَبْغُونَ فى الأرْضِ بغْيرِ الحقِّ** ﴾[17] ، والنمام منهم .

---

(١٦) سورة الحجرات : ١٢ .

(١٧) سورة الشورى : ٤٢ .

وقال ﷺ : « إن من شرار الناس من اتقاه الناس لشره »[١٨] والنمام منهم .

وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة قاطع ، قيل : وما القاطع ؟ قال : قاطع بين الناس »[١٩] وهو النمام وقيل : قاطع الرحم .

وروى عن على رضى الله عنه أن رجلاً سعى إليه برجل فقال له : يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقاً مقتناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن شئت أن نقيلك أقلناك فقال : أقلنى يا أمير المؤمنين .

وقيل لمحمد بن كعب القرظى : « أى خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال : كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد » .

وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميراً : بلغنى أن فلاناً أعلم الأمير أنى ذكرته بسوء قال : قد كان ذلك قال : فأخبرنى بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك قال : ما أحب أن أشتم نفسى بلسانى ، وحسبى أنى لم أصدقه فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصول .

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال : ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم .

وقال مصعب بن الزبير : نحن نرى أن قبول الغاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الساعى ، فلو كان صادقاً فى قوله لكان لئيماً فى صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة والسعاية هى النميمة إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية وقد قال ﷺ : « الساعى بالناس إلى الناس لغير رشدة »[٢٠] يعنى ليس بولد حلال .

ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذن فى الكلام وقال : إنى

---

(١٨) متفق عليه من حديث عائشة .

(١٩) متفق عليه من حديث جبير بن مطعم .

(٢٠) أخرجه الحاكم عن أبى موسى ، قال فيه ابن طاهر فى التذكير : والحديث لا أصل له .

معلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله وإن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته ، فقال : قل ، فقال : يا أمير المؤمنين : إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ولا تصخ إليهم فيما استحفظك الله إياه فإنهم لن يألوا فى الأمة خسفاً وفى الأمانة تضييعاً والأعراض قطعاً وانتهاكاً ، أعلى قُرَبِهِمْ البغى والنميمة ، وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة ، وأنت مسئول عما أجرموا وليسوا المسئولين عما أجرمت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره .

وسعى رجل بزياد (اسم رجل) إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة ، فأقبل زياد على الرجل وقال :

فأنتَ امرؤٌ إمَّا ائْتَمنْتك خالياً ... فخنتَ وإما قلتَ قولاً بلا عِلْمِ
فأنتَ من الأمْر الذى كانَ بيننا ... بمنزلةٍ بين الخيانةِ والإثْمِ

وقال رجل لعمرو بن عبيد : إن الأسوارى ما يزال فى قصصه بشر ، فقال له عمرو : ياهذا ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه ، ولا أديت حقى حين أعلمتنى عن أخى ما أكره ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا ، والقيامة تجمعنا ، والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين .

ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد ورقة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقع على ظهرها السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح ، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكاً فى مستور ولولا أنك فى خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك فى مثلك فتوقَّ يا ملعون العيب فإن الله أعلم بالغيب ، الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله والمال ثَمَّره الله والساعى لعنه الله .

وقال لقمان لابنه : يا بنى أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيداً : ابسط خلقك للقريب والبعيد وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم ، واحفظ إخوانك وَصِلْ أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك .

- وقال بعضهم : لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترىء بالشتم عليك والمتقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك .. وعلى الجملة : فشر النمام عظيم ينبغى أن يتوقى .

- قال حماد بن سلمة : باع رجل عبداً وقال للمشترى ما فيه عيب إلا النميمة قال : قد رضيت فاشتراه فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجة مولاه : ان سيدى لا يحبك وهو يريد أن يتسرى عليك فخذى الموسى واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليك فيحبك ، ثم قال للزوج : ان امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك ، فتناوم لها فجاءت بالموسى فظن أنها تريد قتله فقام إليها فقتلها ، فجاء أهل الزوجة فقتلوا الزوج ونشب القتال بين القبيلتين .. وإنما حدث ذلك من عظم خطر النميمة .. نعوذ بالله من شر كل نمام ..

أعظم من الغيبة والنميمة

وأعظم من الغيبة والنميمة هذا الذى يتردد بين المتعاديين ، ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق ..

- فعن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسان من نار يوم القيامة »[٢٢] ا.هـ .

- وقال ﷺ « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث » ا.هـ[٢٣] .

- وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر : يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم تصل عليه

(٢٢) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ، وأبو داود بسند حسن .

(٢٣) أخرجه الشيخان نحوه . وهو عند ابن أبى الدنيا بهذا اللفظ .

فقال : يا أمير المؤمنين إنه منهم فقال : نشدتك الله أنا منهم أو لا ؟ قال : اللهم لا ولا أؤمن منها أحداً بعدك .

كيف يصل إليها ؟

فإن قلت : بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول : إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً فيه لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين فإن الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى إلى حد الأخوة إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء ..

نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة إذ يصير نماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط ، فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام ، وإن لم ينقل كلاماً ولكن حسّن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أثنى على كل واحد منهما فى معاداته ، وكذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين بل ينبغى أن يسكت أو يثنى على المحق من المتعاديين ويثنى عليه فى غيبته وفى حضوره وبين يدى عدوه .

هذا فى الإقبال والكشر والتبسم ، فأما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله ، بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كل كلام باطل فإن فعل ذلك فهو منافق بل ينبغى أن ينكر فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه .

خاتمة

بهذا تتكون بنية المجتمعات وتخلو من الشوائب فتصبح صالحة للبناء ، فيعتلى صرحها ، وتناطح رياح السماء ، ويصمد أمام تيارات المجون والإفساد ..

وبغير ذلك .. تضعف أمام كل دقيقة وجليلة ، فتهلكه الأشتات .. ولو أن العقلاء والنبلاء أعملوا فكرهم فى نصح الآخرين وتقريب معانى الإنسانية والمثل النبيلة إلى أذهان الناس فى جلساتهم وحوارهم لانتشر الخير الوفير ..

وبعد .. فهذا كل ما وفقنى الله إليه عن الغيبة والنميمة .. أسأل الله رب العالمين أن يبعد عنا أهل السوء ، وأن يصلح حال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .. إنه سميع قريب مجيب الدعاء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إبراهيم محمد الجمل

أهم المراجع

١ – إحياء علوم الدين – للغزالى – ط الحلبى .

٢ – مدارج السالكين – لابن القيم – ط . السنة المحمدية .

٣ – تفسير القرآن العظيم – لابن كثير – ط دار التراث العربى .

٤ – إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان – لابن القيم – ط . الحلبى .

٥ – أحكام القرآن – للجصاص – ط دار الكتاب اللبنانى .

٦ – رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين – للنووى – ط . دار التراث العربى .

٧ – الإنسان فى القرآن – للعقاد – ط . دار الهلال .

٨ – التفكير فريضة إسلامية – للعقاد – ط . الهلال .

٩ – أسرار مجاهدة النفس – للترمذى – تحقيق المؤلف – ط . مكتبة السلام العالمية .

١٠ – عوارف المعارف – للسهروردى – هامش الإحياء – ط . الحلبى .

١١ – القصد والرجوع إلى الله – للمحاسبى – ط دار التراث العربى .

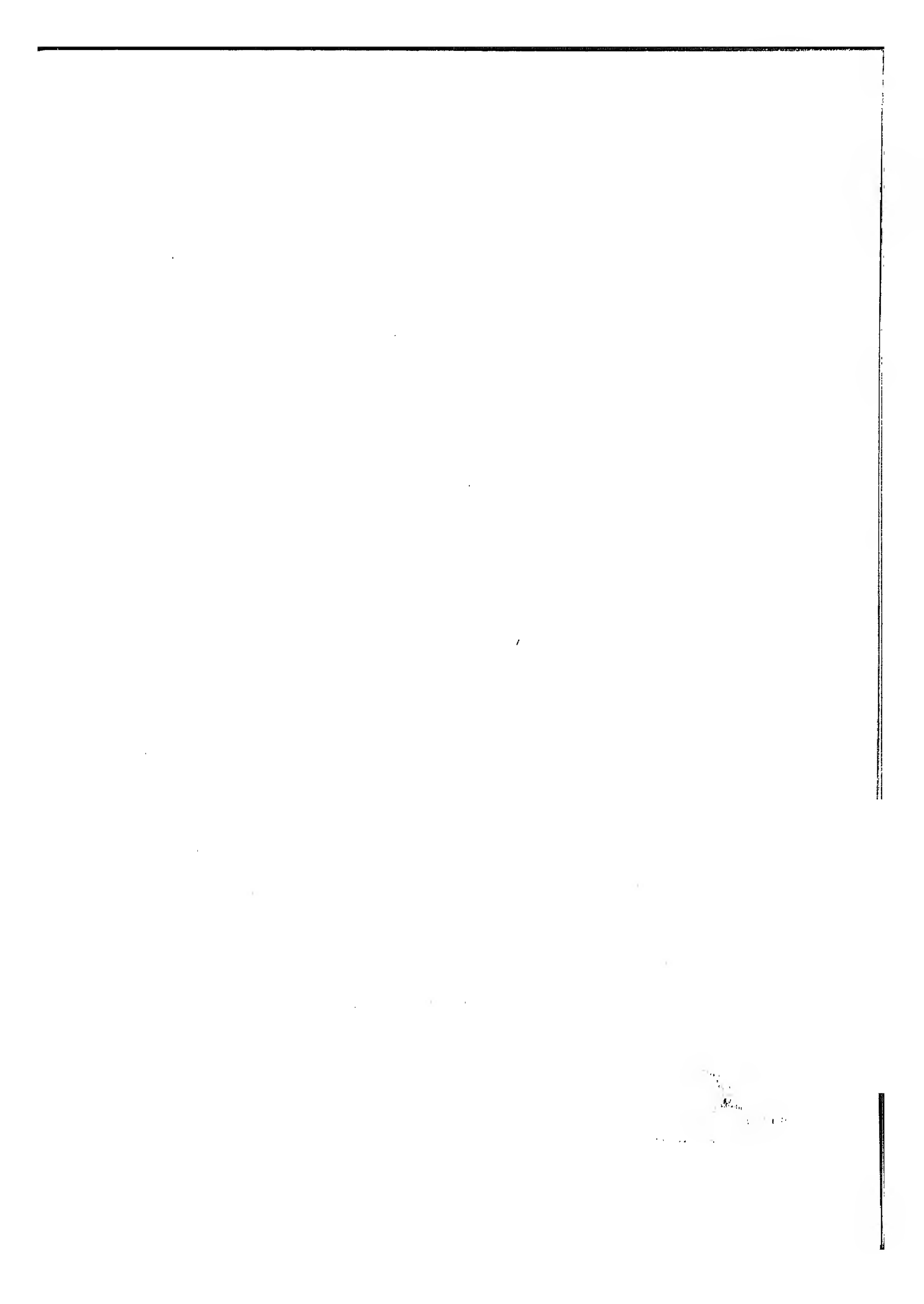
١٢ – الدستور القرآنى والسنة النبوية – لعزة دروزه – ط . المكتب الإسلامى .

١٣ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

١٤ – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – للهيثمى – ط بيروت .

١٥ – المعجم المفهرس لألفاظ الحديث – بيروت .

١٦ – المجاميع والمسانيد وبعض كتب السنة .



الفهـــرس

الباب الرابع : تحريم الغيبة

الباب الخامس : علاج الغيبة

الباب السادس : دوافع النميمة وعلاجها

رقم الإيداع : ٣٠٩٥ / ١٩٨٤

هذا الكتاب

* الغيبة والنميمة أمران فاقا كل شر ، بل هما مبعث كل شر يقع فيه الإنسان ، لأن الدين إذا كان يأمر بالإصلاح بين الناس ، فالغيبة والنميمة تهدمان كل فرصة لمد جسور الخير بين الناس .
* الغيبة والنميمة تزرعان فقدان الثقة والحب بين الناس ، تحطمان الأمل فى إنشاء مجتمع يكون أفراده كالبنيان المرصوص ، كيف تنهض أمة اتسم أفرادها بالبطالة العقلية والفكرية ، واتجهوا للحط من شأن الآخرين ، والبحث عن عيوبهم ليرتفعوا هم .
* الغيبة والنميمة تنبعان من نفوس مريضة ، لم تدرك خطورة ألسنتها التى استباحت لنفسها أن تلوك فى أعراض الناس وعيوبهم .
* وهذا الكتاب يعرض لنا آفات اللسان وخطورتها وما يستلزمه من تجسس على الناس وكره وحقد عليهم .

دار البشير



دار البشير - القاهرة
للطباعة والنشر والتوزيع
٤٥ طريق المعادى الزراعى ص . ب ١٦٩ المعادى . ت : ٩٨٧٣٦٨